صَباحُكُمْ سُكَّر..

الطبعة الأولى 2022

تصميم: شربل إلياس

حقوق الطبع والنَّشر محفوظة للنّاشر

مكتبة كلّ شيء حيفا

يُمنع طبع، أو تصوير، أو نقل أَيِّ مادَّة من الكتاب،

دون موافقة خَطيَّة مسبقة من النّاشر.

الناشر: مكتبة كلّ شيئ - حيفا 2022

ناشرون

info@kul-shee.com

www.kul-shee.com

ISBN 987-965-7789-98-8

حسين مهنّا

صَباحُكُمْ سُكَّر..

إِضاءات

فهرست

أَبِي..	11
حَديثُ قَرْيَةٍ...	13
خُضْرَتُها دائِمَةٌ وعَطاؤُها سَرْمَدِيٌّ..	15
كُنْ شَباةَ رُمْحٍ..	19
قَضاءٌ وقَدَرٌ..	21
حُبٌّ واحِدٌ يَكْفِي..	23
في شَهْرِ أَيلولَ..	25
تَفَهَّمِي خَجَلِي وَتَقَبَّلِي اعْتِذارِي..	28
مَنْ أَنْتِ...؟!	30
صَعْصَعَةُ بْنُ ناجِيَة..	32
تركتْني أَتلفَّعُ بِحَسْرَتِي..	34
أنا وبَصيرَتي والسّنةُ الجَديدَة..	36
يا رَبُّ أَرِنِي قُبْحِي!	38
قُلْتُ لِنَفْسِي..	40
الأحلامُ الصَّعبة..	42
هَواجِسُ ذاتِيَّةٌ..	44

لا بِدايَةٌ ولا نِهايَة..	46
أَيُّها اللاّوَعْي ..!	48
اللّهُمَّ إِنيِّ تمَنَّيت!	50
سؤَالٌ مُحَيّر..	52
ما بيِ داءٌ ولكنْ..	54
كيفَ صِرتُ نباتيًّا....	56
صَلاة..	58
ديسمبر شهرُ الفِداء...	60
سيناريو آخر...	62
المخدوعونَ بانتصاراتِهم..	65
مُفارَقَةٌ غَريبَةٌ..	67
شمسُ فِلَسطين...	69
اتْرُكْ قَلْبَكَ ها هُنا!	71
قَوسُ قُزَح..	73
لُغَتُنا العَرَبِيَّة...	75
الشِّعْرُ..	77
الشّاعِرُ..	79

لَيتَ القَمَرَ طَالِعٌ!	81
جِئْتُكُمْ لِأَمْلأَ بِالبَهْجَةِ صُدورَكُمْ..	83
أَيَّتُها النَّادِباتُ الجَميلاتُ..	85
أَيُّهَا القَلْبُ...	87
أَيُّها الغائِبُ الحاضِرُ!	89
جالِسوهُمْ!	91
يا أَخي مِنْ آدمَ وحَوّاء..	93
أَسْمَعُها..	95
حديث قرية.. (2)	97
مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَحِقُّ...	99
وَاحَرَّ قَلْبَاهُ...	102
قُوَّتُنَا مِنْ قُوَّتِهَا..	104
أَريجُ الذَّاكِرَة...	106
أَريجُ الذَّاكِرةِ.. (2)	109
حَديثُ شَجَرَةٍ..	111
اسْأَلُوا الغَوَّاصَ..	113
الاتِّحادُ لَيسَتْ وَرَقًا وحِبْرًا فَقَط..	115

بِنْتُ الكَلْبِ الحَياةُ.. كَمْ نُحِبُّها!! 117

لِمَنْ نَعْدُو.. 120

صَباحٌ عَادِيٌّ.. 122

نَعْيُ شَجَرَة! 125

ما أَجْمَلَ الحَياة! 127

شُؤُونٌ صَغيرَةٌ.. 131

الحَافِلاتُ العَامَّةُ.. 133

عَنِ الأَسْماءِ.. 135

أَنا عَرَبِيٌّ.. قُلْها بِمُكَبِّرِ صَوتٍ.. 137

حِوارِيَّةٌ.. 139

ثَلاثُ شِهاداتٍ في شَهْرٍ واحِدٍ! 141

تَلاقُحُ اللُّغاتِ.. 143

الإِنْسانُ والوَطَنُ.. 145

السَّاعَةُ.. 147

أَنَا واقِعِيٌّ.. 149

لِمَاذَا؟! 151

آدابُ الحَديثِ.. 153

مَطَر.. 155
الزَّمَنُ الرَّدِيءُ.. 157
مُفارَقَةٌ! 159
العَيبُ فينا لا في الحَياةِ! 161
المَغْمُورونَ.. 163
لِمَ الشَّكْلُ! 165
أَوسَعتَهُم سَبًّا.. 167
أَيَّامُنا وأَيَّامُهُمْ.. 169
أَنا والغِناءُ.. 171
عَنْ كَلِماتِ الأَغَانِي.. 173
الزَّمَنُ الجَميلُ! 175
آفَةٌ مُسْتَحْدَثَةٌ.. 177
تِلْكَ فَوقَ الرِّجَال! 179
سُلْطان بَاشَا الأَطْرَش.. 180
أَفْراحُنا.. 182
غُرورُ الشُّعَراءِ.. 184
كَرامَةٌ قَومِيَّةٌ.. 186

السَّادِيُّونَ.. 188

سُبْحانَ اللهِ! 190

الجَدَلُ والنِّقاشُ.. 192

هَلْ أَنْسَى.. 194

كُتُبٌ صَدَرَتْ لِلشّاعِرِ: 196

أَبِي..

توقّعتُ فراقكَ الأَبديَّ يا أَبي.. فَتَراكُمُ السِّنينَ بِطولِها وصَخَبِها قد أَثقلَ كاهِلَيكَ النّحيلينِ بعدَ أَنْ أَخذَ مِنكَ قُواكَ وترك لكَ ضَعفَك.. توقَّعتُ أَنْ يُعيدَني الحُزْنُ إِلى طُفولَةٍ تَجْعلُني أَجْهشُ بالبُكاءِ، ولكنْ لم أَتوقَّعْ أَنْ أُحِسَّ، بِعُمْري هذا طَعْمَ اليُتْمِ لِلَحْظَةٍ تَخْتــصِرُ عُمْرَينا فأَعودُ طِفلًا وتَعودُ أَنتَ شابًّا تَقْتَطِعُ مِنْ شَبابِكَ قِطْعَةً بعدَ قِطْعَةٍ تُضيفُها إِلى طُفولَتي راضِيًا بِرُؤيتي شابًّا قابِلًا بِرُؤيَةِ نَفْسِكَ عَجوزًا. بِفَقْدِكَ يا أَبي أَشْعُرُ أَنَّ سَفائِني الضَّارِبَةَ في عُبابِ الحَياةِ لَنْ تعودَ إِلى مَرافِئِها لِفَقْدِها الفَنارَ الّذي يَقودُها إِلى بَرِّ الأَمان.. خَرْخَراتُ أَنفاسِكَ الأَخيرَةُ في صَدْرِكَ تَقولُ لي: لَقَدْ تَعِبْتُ يا وَلَدِي! فَخُذْ عَنِّي صَليبي وَسِرْ في طَريقٍ لا تُوصِلُكَ إِلى الجُلْجُثَةِ، فَهَذِهِ لِلْأَنْبِياءِ والقِدِّيسينَ، ولَكنْ سِرْ في طَريقٍ تُوصِلُكَ إِلى النَّاسِ حيثُ يَكونونَ لِتَعْجِنَ أَحْزانَكَ بِأَحْزانِهِمْ، وأَفْراحَكَ بِأَفْراحِهِمْ، ولِتَقِفَ إِلى جانِبِ المُسْتَضْعَفينَ، فَالْحَياةُ، مَهْما تَبَدَّلَتْ أَو تَشَكَّلَتْ، تَظَلَّ صِراعًا أَبَدِيًّا بينَ ما نُحِبُّ أَن تَكونَ ومَا لا نُحِبُّ أَنْ تَكون.

والآنَ وقَدْ غِبْتَ وغَيَّبْتَ مَعَكَ ما تَعْرِفُهُ عَنِّي مِنْ سَقَطاتٍ ومِنْ زَلّاتٍ؛ وتَرَكْتَ لي ما أَعْرِفُهُ عَنْكَ مِنْ مَجْدٍ ومِنْ كَرامَةٍ، أَراني أُلَمْلِمُ ما تَساقَطَ مِنْ رُدْنِ عَباءَتِكَ أَنْسِجُ مِنْهُ دِرْعًا واقِيَةً تَرُدُّ عَنِّي لِسانَ فاجِرٍ، وتَقينِي مِنْ غَدْرِ غَادِرٍ.. وإِنْ كانَ في المَوتِ راحَةٌ فَانْعَمْ بِها في مَماتِكَ إِذْ لم تَنْعَمْ بِها في حَياتِكَ، وإِنْ كانَ ظُلْمَةً أَبَدِيَّةً فَجَميلُ صَبْرِكَ يَشُقُّ لَكَ طَريقًا إِلى نُورِ اللهِ حَيثُ تَأْنَسُ بِجِوارِهِ، وتَنْعَمُ بِنَعيمِهِ، وتَقْرَأُ الفاتِحَةَ على أَرْواحِنا، نَحْنُ الأَحياءَ، لِأَنَّكَ مُقيمٌ بَينَنا ذِكْرى تُبَرْعِمُ كُلَّ صَباحٍ ما دامَتِ الذّاكِرَةُ تَسْقيها مِنْ صافي نَمَيرِها.

حَديثُ قَرْيَةٍ...

الَّذي يَنْظُرُ إلى قَرْيَتِي/ البُقَيعَة مِنْ بَعيدٍ يَرى بُيوتًا تُحاوِل عبثًا الوُصولَ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ المُسَمَّى بِاسْمِها.. فَإذا اقْتَرَبَ مِنْها يَتَفاجَأُ بِبُيوتِها تَهْبُطُ الجبلَ لِاسْتِقْبالِهِ. أَمَّا إذا دَخَلَها، أَحَسَّ بِذِراعَينِ قَوِيَّتَينِ تَمْتَدَّانِ لِاحْتِضانِهِ.

قَدْ تَكونُ قَرْيَتي كَأَيِّ قَرْيةٍ مِنْ قُرَى فِلَسْطينَ لَولا أَنَّها اشْتَهَرَتْ بِكَثْرَةِ يَنابيعِها، فَهُنالِكَ عَينُ البَلَدِ، وَهْيَ الأَغْزَرُ مَاءً، والعَينُ البَرَّانِيَّةُ، وعَينُ طِيرْيا، وعَينُ الجِنانِ، وعَينُ البُسْتانِ، وعَينُ الجُبِّ، وعَينُ العَسَلِ، وَعَينُ الوَرْقاءِ. ولِذا فَقَدْ كَثُرَتْ بَساتينُ رُمَّانِها وخَوخِها، وكَثُرَ زَجَّالوها وشُعَرَاؤُها.

لَكِنَّ بُقَيعَتي أَنا لَيسَتْ بُقَيعَةَ الباطونِ والقَرْميدِ هَذهِ...! بُقَيعَتي هِيَ البُقَيعَةُ الذَّاكِرَةُ، يَومَ كُنْتُ طِفْلًا جامِحَ الخَيالِ، أَعْشَقُ القَصَّ... وكُلُّ شَيخٍ في قَرْيَتي يَحْفَظُ أَكثرَ مِنْ حِكايَةٍ. وكُلُّ مَغارَةٍ أَو خَرابَةٍ أَو عَينِ ماءٍ لَها خُرافَةٌ.. فَأَبو فُؤاد ظَلَّ طَوالَ حَياتِهِ- الَّتي طالَتْ- يُحَدِّثُ أَنَّ الجَانَ يَخْرُجونَ مِنْ عَينِ البَلَدِ ويُقيمونَ أَفْراحَهُمْ في السَّاحَةِ العامَّةِ وَيُقْسِمُ أَنَّهُ رَأَى العَروسَينِ بِعَينِهِ وسَمِعَ الزَّغاريدَ بِأُذْنِهِ مُشيرًا إلى عَيْنِهِ

وإلى أُذْنِهِ اللَّتَينِ سَيَأْكُلُهُما الدُّودُ... والجَدَّةُ أُمُّ نايف تُقسِمُ أَنَّ كَبْشًا بِقَرْنَينِ بِطولِ ذِراعَينِ يَأْتي عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيلِ لِيَشْرَبَ مِنَ العَينِ البرَّانِيَّةِ. أَمَّا الجَدَّةُ أُمُّ نجيب فَكانَتْ فَنَّانَةً بِقَصِّ القِصَصِ الَّتي تَمْلأُ قُلوبَنا هَلَعًا.. كانَتْ تَحْكِي لَنا عَنْ أَبِي (قَصَبَة) الَّذي لا يَلتَذُّ إِلّا عَلى الْتِهامِ قَصَباتِ الأَطْفالِ. و(أَبوعَديلَة) الَّذي لا يَظْهَرُ إِلّا لَيلًا حامِلاً شِوالًا يَجوبُ الأَزِقَّةَ بَحْثًا عَنْ أَولادٍ ما زالوا خارِجَ بُيوتِهِمْ لِيَخْطَفَهُمْ.

والعَمُّ جُبْرائيلُ كانَ لا يَحْكي سِوى حِكايةِ (هولاكو العَصْرِ) الَّذي جاءَ زاحِفًا بِجُيوشِهِ فَدَمَّرَ قَرْيَةَ سُحماتا واتَّجَهَ نَحْوَنا. لَمْ يَكُنْ بِمَقْدورِنا أَنْ نُقاوِمَ، فَرَفَعْنا الرَّاياتِ البيضاءَ... جَمَعونا في السَّاحَةِ العامّةِ.. تقدَّمَ أَحَدُهُمْ بِبُنْدُقِيَّتِهِ نَحْوَنا وقَال: أَنْتَ وأَنْتَ وأَنْتَ وأَنْتَ وأَنْتَ... خَمْسَةٌ مِنْ مَسيحيِّي القَرْيَةِ، أَنا واحدٌ مِنْهُمْ، جَميعُكُمْ لِ (الطَّخّ)! فَما كانَ مِنَ الشُّيوخِ الدُّروزِ إِلّا أَنْ هَبُّوا صائِحينَ: المَنِيَّةَ ولا الدَّنِيَّةَ! مِثْلِما عِشْنا مَعًا نَموتُ الآنَ مَعًا! ويَصْمُتُ العَمُّ جُبْرائيلُ ثُمَّ يُتابِعُ.. كُنَّا هُنا عائِلةً واحِدَةً فَإِذا أَكَلْنا قسَّمْنا الرَّغيفَ بَينَنا، وإِذا شَرِبْنا تَبادَلْنا كُؤوسَ شَرابِنا، وإِذا فَرَّقَتْنا الأَصْباحُ تَعودُ الأَماسِيُّ فَتَجْمَعُنا .... أَيَّام!!

خُضْرَتُها دائِمَةٌ

وعَطاؤُها سَرْمَدِيٌّ..

شَجَرَةً مُبارَكةً كانَتْ ولا تَزالُ، لا هِيَ صَفْصافَةٌ ولا هِيَ سِنْدِيانَةٌ، ولا هِيَ زَيتونَةٌ. ولكِنَّها شَجَرَةٌ مُبارَكةٌ! كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيها وأَنا غَضُّ الإِهابِ، فأَرى جِذْعَها في الأَرْضِ وفَرْعَها في السَّماءِ، فَأَعْجَبُ لِشُموخِها ورَحابَةِ ظِلِّها وحُنوِّها عَلَينا، أَنا ورِفاقِي، أَيَّامَ كُنّا نَأْتيها مُسْتَفيئِينَ ظِلَّها وقَدْ لَوَّحَتِ الشَّمْسُ وجُوهَنا ورَحَضَتْ بِالعَرَقِ أَجْسادَنا. وهأَنَذا أَنْظُرُ إِلَيها اليومَ فَأَراها هِيَ هِيَ شَجَرَةً مُبارَكَةً زادَها تَراكُمُ السِّنينَ تَجَذُّرًا واخْضِرارًا.

جِذْعُ شَجَرِتنا لَيسَ جِذْعًا عادِيًّا، إِنّهُ سِجِلٌّ أَيّامٍ يَحْفَظُ أَسْماءَ مَنْ مَرُّوا بِها مِنْ مُشرَّدينَ ومُعَذَّبين وثائِرينَ فَخَلَعَتْ عَنْهُمْ ثِيابَ بُؤسِهِمْ ويَأْسِهِمْ وأَلْبَسَتْهُمُ الأَمَلَ رِداءً، وأَلْقَتْ عَلَيهِمِ الصُّمودَ إِكْسيرًا، يُحيلُ جَزَعَهُمْ شَجاعَةً ورَغْبَتَهُمْ عَنِ الحَياةِ إِلى رَغْبَةٍ فيها.

وفُروعُ شَجَرَتِنا لَيسَتْ فُرُوعًا عادِيَّةً تَأْلَفُها الطُّيورُ وتَبْني أَعشاشَها بَينَ غُصُونِها فَقَطْ بَلْ هِيَ أَذْرُعُ أُمَّهاتٍ حَنوناتٍ يَضْمُمْنَنا إِلى صُدورِهِنَّ ساعَةَ ضِيقٍ ويَتْرُكْنَنا لِشُؤونِنا ساعَةَ سَلامَةٍ. وَهْيَ رِماحٌ خَطِّيَّةٌ، ساعَةَ غَضَبٍ قوَّمَتْها العاصِفاتُ وثَقَّفَتْها الصَّواعِقُ، ولا تُشْهَرُ إِلاّ في وَجْهِ مِنْشارِ حاطِبٍ جَهولٍ، يَعْتَقِدُ أَنَّ الحَديدَ يَأْكُلُ الحَديدَ أَحيانًا، ويَنْسَى أَنَّ خَشَبَ توتَتِنا عَصِيٌّ على التَّنكيلِ والتَّقْطيعِ.. سَلامٌ عَلى غَارِسي شَجَرَةٍ جِذْعُها في الأَرْضِ وفَرْعُها في السَّماءِ.. سَلامٌ عَلى مَنْ رَعاها فَتَسامَتْ رُؤُوسُها وتَرامَتْ أَطْرافُها.. لا تَخْشى عُرْيًا في خَريفٍ ولا صَقيعًا في شِتاءٍ.. وتَظَلُّ خُضْرَةً دائِمَةً وعَطاءً سَرْمَدِيًّا... فيا أَيَّامِي القادِمَةَ احْمِلِي عَنِّي كَلِماتِي هَذِهِ وَضَعيها قُبْلَةَ وَفاءٍ عَلى قُبُور مَنْ غَرَسُوا شُجَيرَةً فَأَثْمَرَتْ حِزبًا أُمَمِيًّا يَقولُ لِلشَّمسِ قِفِي! فَما أَكْثَرَ مَهامِّي وَما أَقْصَرَ نَهارِي...

قَرُّوا عَينًا يا مَنْ ثَقَبْتُمُ

الجَبَلَ بِإِبْرَةٍ..

هُمْ عُظَماءُ ولكنْ لا يَذْكُرُهُمْ أَحَدٌ.. وإذا مَرَّ ذِكْرُ أَحَدِهِمْ عَرَضًا فَنَتَرَحَّمُ عَلَيهِ إِنْ كانَ مِنَ الأَمْواتِ، ونَدعُو لَهُ بِطولِ العُمْرِ إِنْ كانَ مِنَ الأَحْياءِ.. ثُمَّ نَعودُ بَعْدَها لِنُوصِلَ ما انْقَطَعَ مِنْ حَديثٍ.. قِيلَ لي – والقَولُ قَولُ ثِقاتٍ – إِنَّهُمْ لَعِبُوا لُعْبَةَ الحَياةِ بِإِتْقانٍ.. رَغْمَ أَنَّهُمْ حَمَلُوا أَرْواحَهُمْ عَلى راحاتِهِمْ – والقَولُ لِعَبْدِ الرَّحيمِ مَحْمود – وَسارُوا في كُلِّ طَريقٍ لا يَأْبَهونَ لِما يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ مُفاجَآتٍ، أَصْغَرُها الحَبْسُ أَو النَّفْيُ وأَكْبَرُها حُكْمٌ بِالإِعْدامِ.

كانُوا يَأْخُذونَ مِنْ أَمْسِهِمْ ما يُقَوّي لَهُمْ يَومَهُمْ، ومِنْ أَمْسِهِمْ ويَومِهِمْ يَبْنونَ غَدًا زاهِرًا لِجيلٍ قَادِمٍ.. بِعَزيمَةٍ تَجْعَلُهُمْ يَثْقُبونَ الجَبَلَ بِإِبْرَةٍ! وبِأَكُفِّهِمْ يَطْحَنونَ الصَّخْرَ ويَجْعَلُونَ مِنَ الوَعِرِ سَهْلًا ومِنَ اليَأْسِ أَمَلًا.... وَها نَحْنُ نَسيرُ عَلى طُرُقاتٍ شَقُّوها لَنا في كُلِّ اتّجاهٍ.. وَأَكادُ أَسْمَعُ ضَرَباتِ مَعاوِلِهِمْ، وأَشُمُّ رائِحَةَ ما نَزَفَتْ أَجْسادُهُمْ مِنْ دَمٍ زَكِيٍّ ومِنْ

عَرَق.

وَلَو زِدْنا جُرْعَةَ الوَفاءِ لَهُمْ – نَحْنُ الجِيلَ اللَّاحِقَ – لَنَصَبْنا لَهُمْ تَماثيلَ عِنْدَ كُلِّ ناصِيَةٍ، ونَثَرْنا مَآثِرَهُمْ عَلى طُولِ البِلادِ وعَرْضِها. عَلَّمَنا هَؤلاءِ العُظَماءُ أَنَّ العَدالَةَ الاجْتِماعِيَّةَ حُلُمُ الحُفاةِ وأَمَلُ العُراةِ ومُنْيَةُ مَلايينَ الجَوعَى مِنْ مَشارِقِ الأَرْضِ إِلى مَغارِبِها. وعَلَّمونا أَيْضًا أَنَّ الرَّأْسَمالَ الحَقيقيَّ هو حُبُّ الإِنْسانِ لِأَخيهِ الإِنْسانِ.

فَيا أَيُّها الرِّفاقُ المَوتَى الأَحياءُ.. والأَحْياءُ الأَحْياءُ الَّذينَ أَثْقَلَتْ كَواهِلَهُمْ تَراكُماتُ السِّنينَ، قَرُّوا عَينًا واهْدَؤُوا بالًا.. فَالثَّمَرَةُ الصَّالِحَةُ لا تَسْقُطُ بَعيدًا عَنِ الشَّجَرَةِ الصَّالِحَةِ.

كُنْ شَباةَ رُمْحٍ..

إلى أَينَ سَتَقودُني يا الَّذي إذا رَكِبَ تَكَلَّمَ، وإذا وَقَفَ اسْتَعْصَى عَلَيهِ الكَلامُ فَتَبَكَّمَ.. (والمعنى لأبي تمّام).. وهَلْ سَتَبْقَى عَلى العَهْدِ وقَدْ جاءَ زَمانٌ هَدَأَتْ فيهِ نَارِي، وأَخَذَ الرَّمادُ يُحاصِرُ جِمارِي.. وتَعْلَمُ أَنيِّ قَدْ شَحَنْتُ رَأْسَكَ بِروحِ آلِهَةٍ مُتَمَرِّدينَ، يا أَنيسَ وَحْدَتي وَشَقيقَ رُوحِي في عُزْلَتِي، وتَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّنِي لا أُخَبِّئُ عَنْكَ أَمْرًا، ولا أَنْتَ تَفْضَحُ لي سِرًّا، إِلّا ما اتُّفِقَ عَلَيهِ، فَتَنْشُرُهُ غَمامًا يُمْطِرُ حُبًّا وشِعْرًا ووَرْدًا عَلى مَنْ يَسْتَيقِظُونَ باكِرًا، وَيَحْمِلونَ مَعاوِلَهُمْ يَضْرِبونَ بِها الأَرْضَ لِتُنْبِتَ قَمْحًا وكَرامَةً وياسَمينًا، ولِيَسْقُطَ بَرْدًا وصَبْرًا جَميلًا عَلى مَنْ طَحَنَتْهُمُ اللُّقْمَةُ طَحْنَ الرَّحى فَجَدُّوا لِيَرْتاحَ الَّذينَ قَسَّمُوا الرَّغيفَ القِسْمَةَ الضِّئْزى، وكَدُّوا لِيَدْسَمَ الدَّسِمُ وهُمْ هُمْ عَلى هُزالِهِمْ باقونَ.

سَنَبْقَى عَلى العَهْدِ، فَما زالَ الحَقْلُ مَليئًا بِالأَحساكِ، ومُحاطًا بِالأَسْلاكِ، وما زالَ اليَمامُ الحَزينُ هَدَفًا عَلى مَرْمَى فُوهَةِ بُنْدُقِيَّةٍ لا تَرْحَمُ، وعَينِ زَنيمٍ يُبْصِرُ الدَّمَ الآدَمِيَّ خَمْرًا.. ومَا عَلَينا سِوَى أَنْ نَبيعَ الأَمَلَ عَلى ناصِياتِ الدُّروبِ وهَذا أَضْعَفُ

الإيمانِ، أَو أَنْ نمْحُوَ ابْتِسامَةَ الأَفْعى بِقَطْعِ رَأْسِها.

فَيا الَّذي إِذا رَكِبَ تَكَلَّمَ ... يا قَلَمِي!! كُنْ شَبَاةَ رُمْحٍ لا تَرْحَمُ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ الرَّحْمَةَ.. وقَدْ تَكونُ كَذلِكَ مِنْ حَيثُ لا أَدْرِي!

قَضاءٌ وقَدَرٌ..

حينَ أُمْسِكُ بِالقَلَمِ يَسْتَيقِظُ العَقْلُ ويَتَحَفَّزُ القَلْبُ، فَتَسْقُطُ قَطَراتٌ مِنْ دَمِي عَلى الوَرَقِ أَمامِي لِتَأْخُذَ شَكْلَ المِدادِ وَلَونَهُ، وَلِتَتَحَوَّلَ إِلى أَحْرُفٍ فَكَلِماتٍ فَقَصيدَةِ شِعْرٍ قَدْ تَعودُ عَلَيَّ بِمَدْحِ قارِئٍ أَو بِقَدْحِهِ.. وفي الحالَتَينِ أَجِدُني مُحايِدًا إِلّا مِنْ إِيماني الشَّديدِ بِما أَكْتُبُ. وَكَثيرًا ما تَتَعَسَّرُ عَلَيَّ الكِتابَةُ فَأُلْقي بِقَلَمِ الرَّصاصِ مِنْ يَدِي، وَأُحَدِّقُ بِالوَرَقَةِ البَيْضاءِ أَمامِي، فَتَحْمِلُنِي حِوارِيَّةُ الأَبْيَضِ وَالأَسْوَدِ إِلى مَناطِقَ غَيرِ مُكْتَشَفَةٍ في داخِلِي، فَأَنْحازُ إِلى غُموضِ الأَسْوَدِ حِينًا، وَحِينًا أَنْحازُ إِلى وُضُوحِ الأَبْيَضِ. وَأَعودُ إِلى قَلَمِي الرَّصاصِ وأُحَدِّدُ رَأْسَهُ بِالمِبْراةِ، فَتَعودُ إِليَّ طُفولَتِي، وَأَعودُ إِليها طِفْلًا يُخَرْبِشُ ما طابَ لَهُ مِنْ خَرابيشَ دَوائِرَ يُطَيِّرُها حَساسينَ تُنْشِدُ أَناشيدَها، فَإِذا اسْتَنْزَفَها النَّشيدُ راحَتْ تُلَقِّطُ نُثارَ كَلِماتي لِتَنْسِجَ مِنْها مِنْديلًا مُحَوَّطًا بِالخَرَزِ المُلَوَّنِ قَدْ يَكونُ مِنْديلَ وَداعٍ لِحَبيبٍ أَو هَدِيَّةً مُتَواضِعَةً مِنْ عاشِقٍ لِمَعْشوقٍ؛ فَيَتَساوى عِنْدي الشِّعرُ والنَّثْرُ.. هَذا يُدَغْدِغُ العَقْلَ ثُمَّ الرُّوحَ، وَذاكَ يُدَغْدِغُ الرُّوحَ ثُمَّ العَقْلَ، ولا فَرْقَ في الحالَتَينِ إِلّا بِمِقْدارِ ما يَعْتَبِرُهُ

القارِئُ النَّابِهُ، قَبْلَ النَّاقِدِ أَحْيانًا، نَصًّا جَديرًا بِالقِراءَةِ.

سُئِلْتُ: لِماذا تَكْتُبُ؟ قُلْتُ: لِأَنِّي أُحِسُّ بِحاجَتِي إِلى أَنْ أُطْلِقَ غَمامًا حَبيسًا بِبِرُوقِهِ ورُعودِهِ وأَمْطارِهِ في صَدْري. وَسُئِلْتُ: لِمَنْ تَكْتُبُ؟ قُلْتُ: لِقارِئٍ أَحَبَّ قَصائِدي فَزادَها قِيمَةً. وَسُئِلْتُ: عَمَّ تَكْتُبُ؟ قُلْتُ: عَنْ بَنَفْسَجٍ جَعَلَ مُروجَ وَطَنِي سَماءً، وَسَماءَ وَطَنِي مُروجًا. وَسُئِلْتُ: لِمَنْ تُهْدِي قَصائِدَكَ؟ قُلْتُ: لِحَوَّاءَ يَومَ أَخْرَجَتْنِي مِنْ جَنَّةٍ في السَّماءِ وَأَدْخَلَتْنِي جَنَّتَها. وَسُئِلْتُ: هَلْ يَأْتِي ذَاكَ اليَومُ الَّذي تَتَوَقَّفُ فيهِ عَنِ الكِتابَةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَالكِتابَةُ عِنْدي قَضاءٌ وَقَدَرٌ.

حُبٌّ واحِدٌ يَكْفِي..

حِينَ لا أَتَذَكَّرُكِ صَباحًا أَشْعُرُ بِذَنْبِ المُؤْمِنِ الَّذي أَخَذَهُ النَّومُ فَفاتَهُ مَوعِدُ الصَّلاةِ.. حِينَ لا أَتَذَكَّرُكِ مَساءً، تَنْتَحِرُ نَجْمَةُ العِشاءِ وَتَسْقُطُ رَمادًا تَحْتَ نافِذَتي. وَفي المَرَّتينِ لا أَجِدُ شَفيعًا لي عِنْدَكِ سِوى كَلامٍ لَمْ يَقُلْهُ شاعِرٌ عاشِقٌ مِنْ قَبْل. وَأَدْرِي وَتَدْرينَ أَنْ لا كَلامَ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْل. فَاقْبَلِي مِنّي إِذًا، صَمْتِي وَحَيْرَتي أَمامَكِ، واحْمِلي نَظَراتي عَلى أَنَّها أَبْلَغُ الكَلامِ.. فَما مِنْ كَلامٍ يَخْرُجُ مِنْ سُوَيداءِ قَلْبٍ عاشِقٍ إِلى العَلَنِ إِلّا وَسَقَطَ مَيْتًا تَحْتَ أَقْدامِ الحَبيبِ. الصَّمْتُ في حَضْرَتِكِ، والحَيْرَةُ أَمامَ بَهائِكِ هُوَ الكَلامُ الَّذي لَمْ يَقُلْهُ شاعِرٌ مِنْ قَبْل.

فَيا أَيَّتُها الذَّاكِرَةُ الباهِتَةُ بِفِعْلِ تَراكُمِ السِّنينَ، أَسْعِفيني بِأَنْ أَتَقَرَّى وَجْهَها كُلَّ صَباحٍ كَما تَتَقَرَّى أُمٌّ وَجْهَ رَضيعِها.. وَأَنْ أَقْطِفَ عَنْهُ تَعْويذَةً تَقيني شَرَّ ذاكَ النَّهارِ، إِلى أَنْ أَعودَ إِلَيها يَمامَةً باغَتَتْها رَهْبَةُ اللَّيلِ، وَبَينَ يَدَيها أَنامُ كَقَطْرَةِ نَدًى عَلى غُصْنِ نَعْناعٍ، أَو كَضَوْعَةِ عِطْرٍ لَمْلَمَتْ ذَكيَّ أَنْفاسِها واخْتَبَأَتْ في سَداةِ نَرْجِسَةٍ.

تِلْكَ هِيَ.. وَذَا أَنا.. وَكَما تَدورُ الأَرْضُ حَولَ الشَّمْسِ، أَدُورُ

حَولَها.. وَكَما يَنْجَذِبُ القَمَرُ إِلى الأَرْضِ أَنْجَذِبُ إِلَيها.. لا شَيءَ يَتَغَيَّرُ سِوى أَنَّها هِيَ الثّابِتَةُ وَأَنِّي أَنا المُتَحَوِّلُ إِلّا عَنْ حُبِّها السَّرْمَدِيِّ الَّذي يُضيءُ زَوايا قَلْبِي المُعْتِمَةِ، وَيَسْري في عُروقِي لَهَبًا وإِكسيرًا يُحيلُ فِضَّةَ آمالي ذَهَبًا.

فَيا مَنْ قَرَأَ كَلِماتي هَذِهِ فَأَحَبَّها، خُذْ حُفْنَةً مِنْ بُذورِ الحَبَقِ وانْثُرْ بَعْضَها في حَديقَةِ الحَبيبِ، وَبَعْضَها عَلى رُبى هذا الوَطَنِ.. فَالوَفاءُ لِلْوَطَنِ هُوَ الوَفاءُ لِلْحَبيبِ، وَالوَفاءُ لِلْحَبيبِ هُوَ الوَفاءُ لِلوَطَن.

فِي شَهْرِ أَيلولَ..

فِي شَهْرِ أَيلولَ تَتَرَاخَى قَبْضَةُ الشَّمْسِ، وَيَبْسُطُ الصَّيفُ راحَتَيهِ لِيَمْلَأَ أَهْراءَ الخَريفِ الفارِغَةَ قَمْحًا وَشَعيرًا وَعَدَسًا وَحِمِّصًا وَتينًا مُجَفَّفًا وَزَبيبًا.. فِي شَهْرِ أَيلولَ تَستَحيلُ الأَعْنابُ خُمورًا، وَالزَّيْتونُ يَسْتَحيلُ بَلْسَمًا.. فِي شَهْرِ أَيْلولَ يَأْتينا طائِرُ اللَّقْلَقِ كَعابِرِ سَبيلٍ أَو كَضَيفٍ خَفيفٍ هَرَبًا مِنْ صَقيعٍ شَماليٍّ داهِمٍ، وَلُجوءًا إِلى رَوابِي الجَنوبِ الدَّافِئَةِ؛ وَيَأْتينا طائِرُ الوَرْوارِ، أَو آكِلُ النَّحْلِ غازِيًا شَديدَ السَّطْوِ عَلى قُفْرانِ النَّحَّالينَ.

فِي شَهْرِ أَيلولَ يَنْهَضُ الصَّليبُ مِنْ عَتْمَةِ لَيلِ الفِرِّيسِيِّينَ لِيَنْتَصِبَ نُورًا هادِيًا لِلأَرْواحِ الضَّالَّةِ البائِسَةِ، فَيَعودَ الكاذِبُ صادِقًا، وَالحاقِدُ مُتَسامِحًا، وَالعاصِي طائِعًا، وَالحَريصُ عَلى حَياتِهِ فادِيًا.

فِي شَهْرِ أَيلولَ أَستَذْكِرُ والِدَتي تَقولُ لي: أَحْضِرْ لَنا بَعْضَ أَكوازِ الرُّمَّانِ المَلَّيسيِّ فَقَدْ (صَلَّبَ)، لَيسَ بِمَعْنى أَصْبَحَ صُلْبًا، بَلْ بِمَعْنى أَنَّهُ قَدْ مَرَّ عَلَيهِ عِيدُ الصَّليبِ، فَنَضَجَ وَزادَ حَلاوَةً.

في شَهْرِ أَيلولَ أَستَذْكِرُ والِدي وَهْوَ يَضَعُ أَكوامًا صَغيرَةً مِنَ المِلْحِ عَلى وَرَقَةِ تينٍ لَيلَةَ عيدِ الصَّليبِ...أَسْأَلُ: ما تَصْنَعُ يا أَبي؟ يُجيبُ: أَسْتَقْرِئُ مُسْبَقًا كَمْ سَيسْقُطُ مِنَ المَطَرِ في فَصْلِ الشِّتاءِ. أَسأَلُ ثانِيَةً: كَيفَ؟ وَيَشْرَحُ لي والِدي فَرِحًا بي وَبِسُؤالي، وَأَنا أُصْغِي مَأخوذًا بِالحَيْرَةِ مِمَّا أَرى، وَمِمَّا أَسْمَعُ.

وَأَسْتَذْكِرُ والِدي شاهِدًا عَلى ما يَدورُ مِنَ اتِّفاقِيَّاتٍ لَيلَةَ عيدِ الصَّليبِ؛ فَسَنَةُ الفَلَاحِ عِندَنا (مِنَ الصَّليبِ إِلى الصَّليبِ) إِتِّفاقِيّاتٌ شَفَوِيَّةٌ لا ضَامِنَ لَها سِوى الذِّمَّةِ والأَمانَةِ بَينَ مالِكٍ وَأَجيرٍ أَو بَينَ راعٍ وَصاحِبِ قَطيعٍ. فَإِلى جَانِبِ الأُجرَةِ المَحْسوبَةِ سَنَوِيًّا، يَكونُ الأَجيرُ آكِلًا شارِبًا، مَكْسُوًّا مَحْذُوًّا بِمَداسٍ لا يُنْقَبُ.

في لَيلَةِ عيدِ الصَّليبِ أَسْتَذْكِرُ طُفولَةً بائِسَةً يابِسَةً عِشْناها ولكِنَّها عَلَّمَتْنا الصَّبْرَ والجِدَّ والبَحْثَ عَنِ الفَرَحِ أَينَما كَانَ وَكَيفَما كانَ. وَهَلْ يَكونُ عيدُ الصَّليبِ يَومَ كُنّا أَطْفالًا عِيدًا إِذا لَمْ نُوقِدْ نارًا نَقْفِزُ مِنْ عَلى لَهيبِها فَرِحينَ صائِحينَ (اللّيله عيد الصَّليب.. وكل مريض فينا يطيب....) فَيا عيدَ فَلّاحي بِلادِنا.. أَهْلًا بِكَ في كُلِّ عامٍ جامِعًا إِيَّانا عَلى حُبِّ تُرابِ هذا الوَطَنِ.. وَكَما خَرَجْتَ أَيُّها الصَّليبُ المَغْسولُ بِدَمِ الفادي مِنْ

عَتمَةِ لَيل الفِرِّيسِيّينَ، فَقَدْ آنَ لَنا أَنْ نَترَجَّلَ عَنْ صَليبِ آلامِنا، وَنَمْلَأَ السَّاحاتِ بَيارِقَ مَجْدٍ وفَيالِقَ مُنْتَصِرينَ.

تَفَهَّمِي خَجَلِي

وَتَقَبَّلِي اعْتِذارِي..

لَنْ أَنتظِرَ مُناسَبَةً ما لِأُعَبِّرَ لَكِ عَنْ تَقْديري وإِعْزازي.. فَكُلُّ صَباحٍ عِنْدي مُناسَبَةٌ لِأَهْمِسَ لَكِ – إِنِ اسْتَطَعْتُ – بِكَلامٍ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيهِ شَاعرٌ عَاشِقٌ. فَأَنْتِ أُمِّي الَّتي حَمَلَتْنِي (وَهْنًا عَلى وَهْنٍ) وَهَزَّتْ لِي مَهْدِي بِيَمينِها وَالعالَمَ بِيَسارِها – وَالقَولُ قَولُ نابليون بونابرت – وَأَنْتِ أُخَيَّتِي الَّتي إِنْ بَكَيتُ بَكَتْ لِبُكائِي وَإِنْ ضَحِكْتُ قَرَّتْ عَينًا وَانْشَرَحَتْ صَدْرًا. وَأَنْتِ ابْنَتِي الَّتي أَخَذَتْ مِنْ أَيَّامِي أَجْمَلَها لِتُعيدَها لِي حُبًّا أُسْطورِيًّا، وَحَنانًا يَجْعَلُ مِنِّي طِفْلًا وَيَجْعَلُ مِنْها شَمْسًا تُدفِّئُ ضَعْفِي في خَريفِ العُمْرِ. وَأَنْتِ حَبيبَتِي ثُمَّ صَديقَتي ثُمَّ رَفيقَةُ دَرْبِي نَقْتَسِمُ المُرَّةَ قَبْلَ الحُلْوَةِ، وَنَقْتَسِمُ الحُلُمَ أَيضًا، في عالَمٍ تَسودُهُ المَحَبَّةُ.

سَيِّدَتي حَوَّاءَ... سلامٌ عليكِ يومَ وُلدتِ ويومَ وُئِدتِ ويومَ سُبيتِ..... ويومَ رَفَضْتِ صَليبكِ رُغْمَ عيون الفرّيسيّين وَصِحْتِ: كَفَى!! كَفَى!!

وَسَلامٌ عَلَيكِ حَيثُ تَكونينَ.. تُساهِمينَ بِبِناءِ مُجْتَمَعٍ أَفْضَلَ وَعالَمٍ أَجْمَلَ.. تَرْشُفينَ الحَياةَ مَعَ فِنْجانِ قَهْوتِكِ، وَتَضْحَكينَ ضِحْكَةَ المُنْتَصِرِ عَلى ذاكَ التِّنِّينِ الَّذي طالَما افْتَرَسَكِ قُرْبانَ اسْتِجْداءٍ وعَطِيَّةَ رَحْمَةٍ.. فَأَهْلًا بِكِ نِصْفَ مُجْتَمَعٍ عامِلًا فاعِلًا.. والوَيلُ مِنْ قُرونٍ غابِرَةٍ أَخَذَتْ مِنْكِ كُلَّ شيءٍ وأَعْطَتْ آدَمَ كُلَّ شَيءٍ.

سَيِّدَتي حَوّاءْ

يُسْعِدُني أَنْ أُدْعَى بِطَريدِ الجَنَّةِ

فَالجَنَّةُ عِنْدِي حَيثُ تَكونينَ

بِدونِكِ لا تَعمُرُ أَرْضٌ

وَبِدونِكِ كُلُّ رِياضِ الدُّنْيا صَحْراءْ.

تَفَهَّمِي خَجَلِي وتَقَبَّلِي اعْتِذارِي!!

مَنْ أَنْتِ...؟!

مَنْ أَنْتِ.. سُؤالٌ دابِقٌ عَلى شَفَتَيَّ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةِ حَليبٍ رَضِعْتُها. مَنْ أَنْتِ يا الَّتي إِذا مَسَّدَتْ لِيَ شَعْري أَعادَتْنِي رَضيعًا أَرْتَمِي عَلى صَدْرِها، وإِذا قَبَّلَتْنِي جَعَلَتْنِي فارِسًا شاعِرًا كَلامُهُ شِعْرٌ وَشِعْرُهُ صَلاةٌ.. إِنْ كُنْتِ جِنِّيَّةً فَخُذيني إِلى عَوالِمِ الجانِ لِأَتَعَلَّمَ لُغاتِهم، وَأَدْرُسَ طَبائِعَهُمْ، فَأَكونَ لَكِ تَوأَمًا أُحِسُّ بِمَا تُحِسِّينَ، وَأُدْرِكُ ما تُحِبِّينَ وما تَكْرَهينَ؛ وَإِنْ كُنْتِ أُنْسِيَّةً فَانْزَعِي عَنِّي ثَوبَ فَظاظَتِي وَفَظاعَتِي وَأَلْبِسيني عَباءَةً لُحْمَتُها مِنْ لُطْفِ طَبائِعِكِ وَسُداها مِنْ خُيوطِ بَهائِكِ.

قَذَفَتْنِي الحَياةُ كُتْلَةً مِنْ لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَدَمٍ، فَتَلَقَّفْتِني بِراحَتَينِ ناعِمَتينِ رَحيمَتَينِ وَجَعَلْتِنِي إِنْسانًا يُحِبُّ دونَ أَنْ يَكْرَهَ، وَيَغْضَبُ دونَ أَنْ يَلْعَنَ الحَياةَ، وَيَحْزَنُ سَاعَةَ الحُزْنِ وَيَفْرَحُ سَاعَةَ الفَرَحِ.. لا يَكْفُرُ لِفَقْرٍ وَلا يَبْطَرُ لِنِعْمَةٍ، وَيَظَلُّ فِي اليُسْرِ وفِي العُسْرِ مِنَ الحامِدينَ الشَّاكِرينَ، وَيَظَلُّ ذِكْرُكِ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ عَلى شَفَتَيهِ دُعاءً، وحُبُّكِ فِي قَلْبِهِ هادِيًا. وَأَصْدُقُكِ القَولَ أَنِّي تَعَلَّمْتُ الغَطْسَ لِأَجْمَعَ لَآلِيءَ البَحْرِ عِقْدًا لا قيمَةَ لَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ حَولَ جيدِكِ المَرْمَرِيِّ.. وأَنِّي تَعَلَّمْتُ العَومَ لِأَصِلَ إِلى

جَزيرَةٍ نائِيَةٍ أَنْتِ مَليكَتُها تَجْلِسينَ عَلَى عَرْشٍ مِنْ مَحَبَّةِ المُحِبّينَ.. عَلَى رَأْسِكِ تاجٌ طَهَّرَتْهُ آلامُ يَسوعَ، وَزَيَّنَتْهُ عَدالَةُ الأَنْبِياءِ، وبَينَ يَدَيكِ صَولَجانٌ إِذا أَلقَيتِهِ لا يَصيرُ أَفْعى كَعَصا موسى، بَلْ يَصيرُ نايًا أَخَذَ مِنْ داودَ مَزاميرَهُ وَمِنْ سُلَيمانَ نَشيدَ أَنْشادِهِ لِيَمْلَأَ الكَونَ مَحَبَّةً وَفَرَحًا.

مَنْ أَنْتِ يا الَّتي عَلَّمَتْنِي القِراءَةَ وَالكِتابَةَ لِأَكْتُبَ لَها وَبِها قَصيدَةً يَتيمَةً لَمْ تُكْتَبْ مِنْ قَبْلُ، ولا يَهُمُّ حينَها إِنْ نَعاني النُّعاةُ وَنَدَبَتْنِي النَّادِباتُ.. فَالَّذي يَموتُ مِنْ أَجْلِ حَقٍّ شَهيدٌ.. وَالَّذي يَموتُ مِنْ أَجْلِ وَطَنٍ سَليبٍ شَهيدٌ.. والَّذي يَموتُ مِنْ أَجْلِكِ يا أُمَّ الدُّنْيا يا حَوّاءُ شَهيدٌ..

صَعْصَعَةُ بْنُ ناجِيَة..

صعصعةُ بنُ ناجيةَ (ت 630 م) مِنْ أَشرافِ مُجاشِعٍ فيما قبلَ الإسلام. جدُّ الفرزدقِ الشّاعرِ المشهور. هو أَوّلُ مَنْ قامَ في تميم بإِنقاذِ بناتِهم مِنَ الوَأْد ..... خَبَرٌ نبحثُ عنه طُولًا وعَرضًا في أُمَّهاتِ الكُتُبِ حتّى نَجِدَه. كمْ كانَ كَبيرًا هذا الرَّجُلُ حينَ مَنَعَ، ولو بِشَكْلٍ جُزْئِيٍّ، أَبْشَعَ جَريمَةٍ عَرَفَها التَّاريخُ بِحَقِّ الأُنْثَى.. لِماذا؟ لِأَنَّها ثِقْلٌ ثَقيلٌ على القَبيلَةِ/ المُجْتَمَعِ. فَهْيَ تَأْكُلُ مِن تَعَبِ الرَّجُلِ.. وما هذا التَّعَبُ سِوى السَّلْبِ والسَّبْيِ! وَهْيَ المَقْهورةُ العاجِزَةُ عَنِ الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِها، ولَمْ تَجِدْ سَيفًا مُناصِرًا يَدْرَأُ عَنْها السَّبْيَ فَتُؤْخَذَ ذَليلَةً كَيَ يُزْنَى بها. تُؤَكِّدُ هذا امْرَأَةٌ لا كَأَيِّ امْرَأَة! هِنْد بنت عُتبةَ أُمُّ مُعاوِيَةَ بْنِ أَبي سُفْيانَ حينَ أَخَذَ الرَّسولُ الكَريمُ البَيعَةَ على النِّساءِ وَمِنْ شُروطِها أَنْ لا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ قالتْ: وهَلْ تَزْني المَرْأَةُ وتَسْرِقُ يا رَسولَ الله؟! بَلْ تُسْبَى وَيُزْنَى بِها!

أَتَساءَلُ بِقَليلٍ / كَثيرٍ مِنَ الخَجَلِ كَمْ جَمْعِيَّةً نِسائِيَّةً سَمِعَتْ بِصَعْصَعَةَ ذاك الَّذي سَبَقَ عَصْرَهُ فَأَعْطَى المَرْأَةَ حَقَّ الحَياة. أَينَ صَعْصَعَةُ القَرْنِ لِيَمْنَعَ وَأْدَ البَناتِ اليومَ معَ اخْتِلافِ

الطَّريقةِ وتنوُّعِها. همْ وَأَدُوا بَناتِهم في الرَّملِ ونحنُ نئدُ بَناتِنا بِالكَبْتِ والقَهْرِ والقَمْعِ مُؤَكِّدينَ بِذلكَ أَنَّنا ما زِلْنا نَفْهَمُ الرُّجولَةَ فَهْمًا خاطِئًا يَصِلُ إِلى حدِّ الخَطيئَةِ أحيانًا، فَلْنَرْفَعْ سَكاكينَ الجاهليَّةِ الحَديثَةِ عنْ أَعْناقِ بناتِنا، وهَلْ يُعْقَلُ أَنْ نَرْكَبَ السَّيَّاراتِ الفَخْمَةَ ونَسكُنَ البُيوتَ / القُصورَ ولا نَعْمَلُ على بِناءِ عَقْلٍ مُسْتَنير؟!

لَيتَني أَجدُ مَنْ يقولُ لي بالَغْت ....!

تركتْني أَتلفَّعُ بِحَسْرَتِي..

جمعتْ أشياءَها في حقيبةِ سَفَر.. نظرتْ حولَها كأَنَّها تُريدُ أَن تتأكَّدَ أَنَّها لم تنسَ شيئًا وراءَها. قلتُ لها بصوتٍ جمعَ حزنَ السَّابِقينَ واللاَّحِقينَ في بلاغةٍ كلاميَّةٍ قد تُصبحُ قاموسًا للعاشِقينَ، وبلَسَمًا للقلوبِ الَّتي بَرَّحَها الشَّوق. إلى أَينَ؟ سأَلتُ. قالتْ: إلى أَقربِ بيتِ عَجَزَةٍ أَنتظرُ فيهِ نِهايَتي.. قلتُ: إذا كانتْ هنالكَ من نِهايةٍ لكِ، فلِمَ لا تكونُ على راحتيّ وأَنتِ تَعلمينَ أَنَّني مُذْ أَتيتِ زائرةً فتحتُ لكِ قلبي وجعلْتُ عينيَّ شُرفتَينِ تُطِلِّينَ مِنهُما على خُضْرَةِ الأَمَلِ وزُرْقَةِ الأَلَمِ، فأَضَحكْتِني حينًا وأَبكيتِني حينًا وأَنا صاغِرٌ رَهْنَ إِشارَتِك. وإِنْ كانَ لا بُدَّ مِنَ الفراقِ فاتْرُكي لي تِذْكارًا يُذكِّرُني بِكِ. قالَتْ: ليسَ بِيدي أَنْ أَتْرُكَ لكَ شيئًا سِوى دَمْعَتي وابْتِسامَتي. تَرَكَتْني أَتلفَّعُ بحَيْرَتي وأَتَعثّرُ بِحَسْرَتي وخَرَجَتْ، غَيرَ أَنَّ دَقّاتٍ خَفيفَةً على بابي جَعَلَتْني أُلَمْلِمُ بعضَ شَتاتِ رُوحي، وقبلَ أَنْ أَستجيبَ لطارقِ بابي، دَخَلَتْ وحيَّتْ باسمةً. مَنْ أَنتِ؟! صِحْتُ غارقًا بِسِحْرِ جمالِها، مَدهوشًا بشبابِها ورَشاقَةِ قَوامِها. قالَتْ: أَنا أُختُ الَّتي فارقتْكَ الآنَ وجِئتُ لآخذَ مَكانَها،

فَإِن قَبِلْتَني على كَراهَةٍ قَلَبْتُ صيفَك شِتاءً وشِتاءَكَ صَيفًا. وإِن فتحْتَ لي صَدْرَكَ جَعلْتُ أَيّامَكَ فَرَحًا ولَياليكَ أُنْسًا. قُلْتُ: يا أُخْتَ مَنْ تَرَكَتْني لِوَحْدَتي وفي مَتاهاتِ الظُّنونِ أَلْقَتْني ما تَطْلُبينَ حَرامٌ في عُرْفِنا ودينِنا! قالَتْ: ولكِنَّه في عُرفِنا ودينِنا حَلال ...

لَكَزات ٌ خَفيفَة ٌ تُوقِظُني، أَفْتَحُ عَينَيَّ على فَرَحٍ غامِرٍ يُطلُّ من عَينَي زَوجَتي تقولُ لي: سنةٌ مضَتْ، وسنةٌ جَديدَةٌ أَتَتْ.. كلَّ عامٍ وأَنتَ بِخَير. تَبَسَّمْتُ وقلتُ: كلَّ عامٍ ونَحْنُ والبَشريَّةُ بِأَلْفِ خَير.

أنا وبَصيرَتي والسّنةُ الجَديدَة..

وقفْتُ، كعادَتي، أَتفحَّصُ أَناقَتي أَمامَ المِرآةِ استِعْدادًا لاستقبالِ السَّنةِ الجديدةِ، وإذْ بي أَسْمعُ صَوتًا خافِتًا كأَنَّهُ آتٍ من وادٍ سحيقٍ بعيدٍ، فقلْتُ مُتَلَفِّتًا وأنا ما بينَ مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ: مَنْ يُخاطِبُني؟ فردَّ الصَّوتُ: أَنا مِرآةُ ذاتِكَ، وليتَكَ تنظرُ إِليَّ من حينٍ الى حين! قلْتُ: وما انتِفاعي إِذا نظرْتُ إِليكِ وأَنتِ قابِعةٌ في أَعماقِ نفسي لا تَرَينَ منَ الدُّنيا شيئًا!! فقالَتْ مُؤَنِّبَةً: ما أَعظمَ غباءَكَ أَيُّها الإِنسانُ حيثُ تجري وراءَ باصِرَتِكَ فترى الأَشياءَ بِظواهِرِها ولا تلتفتُ إِلى بَصيرَتِكَ الَّتي تُريكَ بَواطنَها، فإِذا أَبصرْتَ بَسمةً على شَفَتَي عاملٍ بائسٍ مثلًا، قلْتَ في نفسِكَ: ما أَسعَدَ هذا الرَّجُلَ! وتَنْسى أَنَّ جَشَعَ صاحبِ المَصْنعِ قد حوَّلَهُ من إِنسانٍ إِلى مَخلوقٍ نِصْفُهُ آليٌّ ونصفُهُ الآخرُ بشريّ.

وإِذا أَبصرْتَ حَسناءَ هتفْتَ مَبهورًا: يا لَهذا الجمالِ! وتنسى أَنْ تَنظُرَ بِبَصيرَتِكَ لِتذكُرَ أَنَّنا في عَصْرٍ، بِمِشْرَطِ الطَّبيبِ وبأَحدثِ أَنواعِ المَساحيقِ تُصبحُ القَبيحةُ أَجملَ الجميلات! كأَنّي بِكَ تَترُكُ الصَّوتَ وتَتْبَعُ الصَّدى.

قلْتُ وقد طابَ ليَ الحديثُ: وماذا تقولينَ في حواسّي الأُخرى؟ فانشرَحَتْ أَساريرُها لِإصغائي لها، وقالَتْ: أَمّا حاسَّةُ اللَّمْسِ فهيَ عينُكَ الثّالِثةُ تُريكَ ما غَفَلَتْ عنهُ عينُكَ؛ فرؤْيةُ الحريرِ لا تكفي لِلحُكْمِ على جُودتِهِ من غيرِ لَمْسِهِ. وأَمّا حاسّةُ الشَّمِّ فهيَ دليلُكَ إِلى زَهْرَةٍ ولدَتْها الأَرضُ وأَرضَعَتْها الشَّمسُ، وليسَ إِلى زَهْرَةٍ ولَدَتْها وأَرضَعَتْها صَلادَةُ المَصانِعِ. وأَمّا الذَّوقُ، فَلْيَكُنْ في فَمِكَ مُرشِدَكَ إِلى شَهيِّ الطَّعامِ، وفي طَبْعِكَ إِلى رَوعَةِ الجمالِ...فإِذا ما وقَفْتَ أَمامَ المِرْآةِ وانتابَتْكَ نَوبَةٌ من غرورٍ، وأَخَذَتْكَ مَوجَةٌ من تَفاهَةٍ تَذَكَّرْ كَلِماتي وإِيّاكَ أَن تكونَ منَ الغافِلين.

يا رَبُّ أَرِنِي قُبْحِي!

كلّما نظرتُ إلى المرآةِ وأعجبتْني نفسي قلْتُ: يا رب! أَرِني قُبْحي لأَظلَّ بَشَرًا أَسيرُ على قدمينِ لا أَنْ أَطيرَ بجناحَينِ مِنْ عُجْبٍ وكِبْرِياء. فالتَّواضُعُ في زَمانِهِ ومَكانِهِ المُناسِبَينِ يَرْفَعُ من قَدْرِ الإنسان. وكما قالَ الأَديبُ اللُّبناني الكبيرُ أَمين الرَّيحاني (1876– 1940).. أَوَدُّ أَن أَرْتَفِعَ دونَ أَنْ أَتَرَفَّعَ، وأَتقدَّمَ دونَ أَنْ أَدوسَ مَنْ هُمْ دوني أَو أَحْسِدَ مَنْ هُمْ فَوقِي.

مُؤْسِفٌ حقًّا أَنْ نَهتمَّ بمظْهَرِنا دونَ مَخْبَرِنا.. والتَّوازي بينَهُما يُعطينا الجَوابَ الأَمْثلَ لِجَدَلِيَّةِ الشَّكْلِ والمَضْمون. وإِذا كانَ لا بُدَّ من تَغْليبِ أَحَدِهما على الآخَرِ فَلْيكنْ لصالحِ الجَمالِ الدَّاخِليِّ، لأَنَّ الجَمالَ الخَارِجِيِّ جَما لٌ ليسَ لنا اجتهادٌ فيهِ، إِ نَّهُ عَمَلٌ جينيٌّ رُجوعًا إِلى الجَدِّ السّابِعِ كما يقولُ مَنْ لهم شَرعِيَّةُ القَول. أَمَّا الجَمالُ الدَّاخِليُّ فهو المُحَصِّلةُ النِّهائِيَّة لِاجْتِهادِ الفَرْدِ الَّذي يَدأَبُ على رَفْعِ سَقْفِ ثَقافَتِهِ وإِنْسانِيَّتِهِ وخِفَّةِ ظِلِّهِ، حتّى لو عاشَ في بيئَةٍ فاسِدَة.

مُذْهِلٌ ما نراهُ اليومَ من تَغْليبِ الشَّكلِ على المَضْمون.. مُفْزِعٌ هذا الهُجومُ الغَبِيُّ على أَطِبّاءِ التَّجْميلِ ناسينَ أَو مُتَناسينَ

أَنَّ جِراحَةَ التَّجْميلِ حَقٌّ شَرعِيٌّ لِسَبَبٍ طِبِّيٍّ ليسَ أَكْثَرَ. وكَمْ يَذْبَحُ النَّفْسَ ما نُشاهِدُهُ على الشَّاشَةِ من لِقاءاتٍ معَ فَنّانينَ، بِالسَّاعَةِ وبِالسَّاعَتَينِ، فلا نَسْمَعُ سِوى ضَحِكاتٍ رَقيعَةٍ تَشْهَدُ على تَفاهَةِ اللِّقاءِ وتُشْعِلُ فينا حالةً مِنَ النَّدَمِ الشَّديدِ على ذاكَ الوَقْتِ الضَّائِع.

لِنَتَرَحَّمْ كلَّ صَباحٍ على زَمانٍ مَضى عَمِلَ أُناسُهُ على تَرْسيخِ وإِعْلاءِ صَرْحٍ ثَقافيٍّ فَنِّيٍّ شامِخٍ نَتَمَنّى أَن نُضيفَ إِليهِ ولو مِدْماكًا واحِدًا.. ولا أَقولُ هذا حَسْرةً على شَبابٍ ضائِعٍ أَو سَلْبِيَّةِ القَديمِ تجاهَ الجَديدِ (أَحيانًا)، ولكنْ لِماءِ الحَنْظَلِ الَّذي نُسْقاهُ كلَّ يوم.

قُلْتُ لِنَفْسِي..

قُلْتُ لِنَفْسِي ونحنُ على عَتَبَةِ السَّنَةِ الجَديدَةِ: إلى أَينَ سَتَقودينَ كُهولَتي؟ وماذا تُراكِ أَعْدَدْتِ لي من كُؤُوسٍ أَشْرَبُها وأَنا لا أَعْلَمُ ما فيها؟ قالَتْ وقد بَدَتْ غاضِبَةً عاتِبَة: أَلِمثْلي يُقالُ هذا الكلامُ ويُكالُ لي مِثْلُ هذا الإتِّهام وأَنتَ تَدري أَنَّني تابِعَتُكَ كظِلِّك.. إذا جَلَسْتَ جَلَسْتُ، وإِنْ وَقَفْتَ وَقَفْتُ، وإِنْ سِرْتَ وتَعَثَّرْتَ قَدَمُكَ أَتَعَثَّرُ معكَ وقَلْبِي يَطْفَحُ شَفَقَةً عليكَ ودُعاءً لك.. فَقُلْتُ مُقاطِعًا: ولكنْ يا رَفيقَةَ نَهاري ولَيلي مُنْذُ وِلادَتي، كُلَّما اعْتَقَدْتُ أَنَّني بَدَأْتُ أَفْهَمُكِ اكْتَشَفْتُ فيكِ جانِبًا مُبْهَمًا.. فَمِن أَينَ لكِ كُلَّ هذا الغُموض؟ لَكَأَنَّكِ وُجِدْتِ لِتَشْغَلي بالي بِأُمورٍ لا أَدْري من أَينَ تَأْتينَ بِها.. فكَمْ من لَيلٍ طَويلٍ طَرَدْتِ الكَرَى عن أَجْفاني وأَنْتِ تُوَسْوِسينَ لي بما لا أَرْغَبُ في تَحْقيقِهِ. كيفَ يُمْكِنُ أَنْ أُصْبِحَ ثَرِيًّا وأَنا أَعْرِفُ كما تَعْرِفينَ أَنَّ السُّبُلَ إلى الثَّراءِ طَويلَةٌ ومُلْتَوِيَةٌ يَكْثُرُ على جَوانِبِها الأَعداءُ والحاسِدون؟! كيفَ يُمْكِنُ أَنْ أَكونَ رَئيسًا في قَرْيَةٍ سَكَنَ أَهلُها القُصورَ ولا تَزالُ الجاهِلِيَّةُ تَسْكُنُ عُقولَهُمْ وقُلوبَهُم؟! فَأَرجوكِ كُفِّي عن مُضايَقَتي وما رَأَيتُ أَقْدَرَ مِنكِ

على جَعْلِ القُبْحِ بَهاءً والبَهاءِ قُبْحًا. أَطْرَقَتْ قَليلًا ثُمَّ قالَتْ: كما تَشاءُ يا رَفيقي، ولكنْ أَردْتُ أَنْ أُوقِظَ فيك طُموحَكَ، وأَنْزَعَ من قَلْبِكَ كَسَلًا مُزْمِنًا تُسَمّيهِ أَنْتَ قَناعَةً. أُريدُ أَنْ أَراكَ رَجُلًا مَهوبًا في مُجْتَمَعٍ يَرى الثَّرِيَّ سَيِّدًا حتّى لو كانَ جَاهلًا، ويَرى القَويَّ زَعيمًا حتّى لو كانَ قاطعَ طَريق. فاتْرُكْ مَدينَتَكَ الفاضِلَةَ شَهرًا واحدًا لِتعرِفَ طَعْمَ السِّيادَةِ وعَظَمَةَ الزَّعامَةِ، وما السِّيادَةُ والزَّعامَةُ سِوى الشُّهْرةِ الَّتي يَتوقُ إليها أَبْناءُ آدمَ وحَوَّاء.. قُلْتُ: كَفى.. كَفى عن أَيَّةِ شُهْرةٍ تَتَحَدَّثينَ، وبِأَيِّ مَنْطِقٍ تَنْطِقين؟! إِنَّ شُهْرَتي أَنْ آكُلَ لُقْمَتي بِعَرَقِ جَبيني وأَنْ أَلبَسَ هِدْمَةً تَسْتُرُ عُرْيي، وأَنْ أَبْني سَقْفًا يَقيني من لَفَعاتِ شَمْسٍ حارِقَةٍ ولَسَعاتِ بَرْدٍ قارسٍ، وأَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا يَنْفَعُ النّاسَ أَشْتَري بِهِ حَياتي..

صَمَتَتْ نَفْسي راغِمَةَ الأَنْفِ، ولكنِّي رَأَيتُ على وجْهِها عَلاماتٍ تَشي بِأَنَّها تُعِدُّ العُدَّةَ لِجَولَةٍ أُخْرى ....

الأحلامُ الصَّعبة..

استيقظتُ هذا الصَّباحَ باكِرًا على غيرِ عادتي.. معَ أنيّ قد أطلْتُ السَّهَرَ.. لماذا؟! لا أدري. لعلَّ عُمَرَ الخيّامِ قَصَدَني بِقَولِهِ: أَفِقْ خفيفَ الظِّلِّ هذا السَّحَر.. فنهضْتُ مُلَبِّيًا نداءَهُ. جلسْتُ على الشُّرفَةِ وأَنا أَنْفُضُ بقايا نُعاسٍ عالِقَةً بينَ أَجفاني، وكانَتِ النِّسامُ بارِدةً فأَنعَشَتْني وسارَعَتْ في يَقَظَتي وصَفاءِ ذِهْني. قلتُ: هيَ فُرصَةٌ رائِعةٌ لأَرَى بُزوغَ الشَّمْسِ.. يا أَللّه!! ما أَطولَ زمانًا مَرَّ دونَ رُؤْيتي ذلكَ وأَنا القرويُّ الفلاَّحُ ابنُ الفلاَّحِ وقد تَفَتَّحَتْ عينايَ على الشُّروقِ، وأُغْمِضَتا على الغُروبِ!

ما أجملَ لحظَةَ الشُّروقِ هذِهِ! إنَها وِلادةُ النُّورِ منَ الدَّيجورِ. إنَّها انبِثاقُ الحياةِ من ظُلْمَةِ الرَّحِمِ. إنَّها انطلاقُ الحُرِّيَّةِ من غياهِبِ السُّجونِ. إنَّها حُرِّيَّةُ شعبي وانْتِزاعُ دولَتِهِ من سُوَيداءِ قلوبٍ تَحَجَّرَتْ ولا أَملَ في شِفائِها إلاّ بِقلعِها كما تُقْلَعُ الأَحساكُ من حَقْلٍ سَبِخٍ ليَصيرَ صالِحًا.

نَبَّهَني اليمامُ الَّذي أَخذَ يُحَوِّمُ حولَ داري، وأَعادَني من سِحْرِ آمالي الى جَفاءَةِ واقعي. هذا اليمامُ اعتادَ على أَن أَنثُرَ

لهُ العَلَفَ كُلَّ صباحٍ.. تَبَسَّمْتُ وقُلْتُ في نَفْسي: لَعَلَّ في هذا صَدَقَةً، فَلأبْدَأْ بها يومي، فقد جاءَ في الحديثِ النَّبَويِّ الشَّريفِ: على كُلِّ إنسانٍ في كُلِّ يومٍ صَدَقَةٌ. فَسُئِلَ: وما الصَّدَقَةُ يا رسولَ اللّه؟ قالَ: عِيادَتُكَ المريضَ صَدَقةٌ، وصَلاتُكَ على الجنازَةِ صَدَقَةٌ، وإماطَتُكَ الأَذى عن الطَّريقِ صَدَقَةٌ، وعَوْنُكَ الضَّعيفَ صَدَقَةٌ.. وهَل هُنالِكَ ألْطَفُ وأَضْعَفُ من اليمامِ!؟

في هذِهِ الأَثناءِ استيقَظَتْ زوجَتي. قالَتْ وهي تَعْلَمُ-ومَنْ غيرُها يعلَمُ بِخَبايا نفسي-: إلى أَينَ وصَلتَ؟ قُلْتُ: أخَذَني الحُلُمُ إلى عالَمٍ لا على الأَرضِ ولا في السَّماءِ. ليتَني أَحكُمُ هذا العالَمَ أربَعًا وعشرينَ ساعَةً فقط لأُفكِّكَهُ وأُعيدَ تركيبَهُ من جَديدٍ، ولكنْ على مِزاجي! قالَتْ مُداعِبَةً: أنتُم- الماركسيّينَ- ما أقدَرَكُم على رُكوبِ الأَحلامِ الصَّعبَةِ! سَأُعِدُّ لكِلينا كوبَينِ من الحليبِ بالقَهوةِ.

هَواجِسُ ذاتِيَّةٌ..

سألني أَحدُهم مرّةً: لماذا تحبُّ الجليلَ كلَّ هذا الحبّ؟ قلتُ دونَ إبطاءٍ.. لا أَدري ولَعَلَّ الحبَّ الصّادقَ لا يَحْتَمِلُ رَتابةَ الشَّرحِ وسوءَ التَّفسير. حَكَتْ لي أُمِّي أَنْ جاءَها المَخاضُ وهي حاملٌ بي في الحَقْلِ تَحْصُدُ القَمْح. وما بينَ الحقلِ والبيتِ كانَ دُعاؤُها: يا ربّ! يَسِّرْ لي أَمري وارزُقْني مَولودًا يُحبُّ الأَرض. في بيتِنا الفلَّاحِيِّ التُّرابيِّ تَلَقَّفتْني قابلةُ القريةِ بِراحَتَينِ مُبارَكتَينِ، غَسَلتْني بالماءِ والدُّعاءِ، ومَسَحَتْ جَسَدي الطَّريَّ بزيتِ الزَّيتونِ ومَسحوقِ الرَّيحان. في طُفولَتي اليابِسَةِ دَرَجْتُ حافيَ القدمينِ على بيادرَ أُثْقِلَتْ بالحَصيدِ، وركضْتُ خَلْفَ الفَراشاتِ المُلوَّنَةِ في البَساتينِ والحُقولِ مَفْتونًا بالأَخضرِ والأَصْفرِ، لَونَينِ طاغِيَينِ في رَبيعٍ مَطَرُهُ رِهامٌ ونَبْتُهُ شيحٌ ونَرْجِسٌ وأُقْحُوان. شَبَبْتُ وظَلَّ فَطوري زَيتًا وسَعْترًا وعَشائي مُجدَّرَةً بُرْغُلُها جَليليٌّ وعَدَسُها جَليليٌّ أُنْضِجَتْ على مَوقدِ نارٍ حَطَبُهُ جَليليٌّ طَهور. فَهَلْ كَثيرٌ أَنْ أَنْشَأَ مُحِبًّا وَفِيًّا لهذهِ البُقْعَةِ مِنْ أَرْضٍ رَؤُومٍ أَسكنتْني بيتًا من تُرابِها ومَسَحَتْ جَسَدي بِزَيتِ زَيتونِها ولَوَّنَتْ حَياتي

بِأَخْضَرِها وأَصْفَرِها وأَسْكَتَتْ سَغَبي بِخُبْزِ قَمْحِها وأَطْفَأَتْ عَطَشِي بِنَميرِ سَواقيها؟ وهلْ كثيرٌ إذا ثَبَّتُّ قَدَمَيَّ في قَريَتي ووَضَعْتُ جَليلي في عَينَيَّ وأَطْبَقْتُ عليهِ أَجْفاني؟ بِاللهِ عليكمْ إن مُتُّ فَاجْعَلُوا قَبْري على تَلَّةٍ جَليليَّةٍ أَسْتَقْبِلُ الشَّمْسَ في شُروقِها وأَشَهدُ مِهْرجانَ غُروبِها وأَظلُّ ساهرًا مَعَ القَمَرِ أَحْرُسُ السَّواسِنَ والزَّنابقَ والبَيلَسان.

لا بِدايَةٌ ولا نِهايَة..

يَحْدُثُ أَنْ تجلِسَ على شُرفَةِ دارِكَ صَباحًا، وتَسْترَخي على كُرسيِّكَ المُريحِ تارِكًا نَفسَكَ لِسَكْرَةِ التَّأمُّلِ كَهُواةِ اليوغَا أَو كَسَكْرَةِ صوفيٍّ يرى الأبَدِيَّةَ في تلكَ السَّكْرةِ. تُسَرُّ لهذا الخاطِرِ وتُحِسُّ بِأَنَّكَ نَجْمٌ في السَّماءِ، سُرعانَ ما تَنتَبِهُ الى أَنَّ النَّجْمَ يظهَرُ حينًا ويختَفي حينًا، وقد يعودُ هَيولى، فَيُحْزِنُكَ هذا الخاطرُ وتَسْقُطُ في البَحْرِ لِترَى نَفسَكَ سَمَكَةً تلهو آمِنَةً في الماءِ، ولكنْ أَينَ ستَهرُبُ من سَمَكِ القِرْشِ الَّذي قد يُطْبِقُ عليكَ في كُلِّ لَحظَةٍ! فتقفزُ تَوًّا إلى اليابِسَةِ لِترَى نَفْسَكَ شَجَرَةً تُعطي الظِّلَّ والثَّمَرَ، بلا مَنٍّ، لِكُلِّ عابرِ سَبيلٍ. فَتَتَقَبَّلُ هذا الخاطِرَ لولا أَسنانُ المِنشارِ الحادَّةُ الّتي تَنتَظِرُكَ عاجِلًا أَم آجِلًا؛ ورُبمَّا تُفْلِتُ منها لِتَقَعَ تَحتَ بَطْشِ السُّوسِ الّذي سَيَنْخَرُ عَظْمَكَ لِتَجِفَّ على مَهَلٍ. إِذًا، لِتَكُنْ حَديدًا صُلْبًا لا يلينُ.... كيفَ وَكُورُ الحدَّادِ يُحيلُكَ عَجينَةً ويصنَعُ منكَ، شِئْتَ أَم أَبيتَ، ما يشاءُ؛ وقد تُنسَى في زاوِيَةٍ مُعْتِمَةٍ لِتُصبِحَ مَحَطًّا لِلصَّدَإِ الّذي سَيَحْتَلُّكَ أَبشَعَ احتِلالً. فلْتَكُنْ مادَّةً لا تَصْدَأُ، كالذَّهبِ مثلًا، لكنَّ يدَ الصَّائغِ لن تَرحَمَكَ فمرَّةً تَرَى نَفسَكَ

خاتمًا في بِنْصَرِ حقيرٍ أَو سِوارًا في مِعصَمِ فاجِرةٍ أو ساعَةً في جيبِ ظالِمٍ مُستَبِدٍّ. تَهتَزُّ فَرَقًا لِتُصبِحَ نَسْرًا يَضرِبُ الجوَّ بجناحينِ فولاذِيّينِ، ولا يسكُنُ إلاّ ذُرَى الجبالِ.. وهلْ بذلكَ تكونُ في مَنْجَىً من أَعينُ البنادِقِ؟!

إذًا، لِتَظَلَّ كما أَنتَ-من تُرابٍ وإِلى تُرابٍ تَعودُ-وقد تُصبِحُ عُشْبَةً تَقضِمُها شَاةٌ لتصبحَ حليبًا يَسْري في جسمِ إِنسانٍ أَو حيوانٍ يموتُ لِيَعودَ وتَعودَ تُرابًا على تُرابٍ.. مادّةً سرمَدِيَّةً تدورُ دَورَتَها بِلا بِدايَةٍ أَو نِهايةٍ....

أَيُّها اللاّوَعْي ..!

أَيُّها اللاّوعيُ.. لقد سكنْتَ ذاتي، فإلامَ ستظلُّ تُعكِّرُ صَفْوَ حياتي؟ أَما آنَ لِلنَّفسِ القلِقةِ المُثْقَلَةِ بِرُفاتِ الأَحداثِ وحُطامِ الأَيَّامِ أَن تَسْتَكِنَّ، كسفائنِ السِّندَبادَ في موانئِ أَحلامِها؟! لماذا كُلَّما رأَيتَني أُحلِّقُ في فَضاءاتِ أَفراحي كسرْتَ لي جناحي، وأَنْزلْتَني إِلى حَضيضِ أَتْراحي؟ كأَنَّكَ تُؤَكِّدُ أَنَّ إِبداعَ المُبْدِعِ أَكثرُ ما يجيءُ مُغَمَّسًا بِحُزْنِ الحَزانى وقَهْرِ المقهورين!

كُنْتُ طفلاً، كَأَيِّ طفلٍ، لا أُمَيِّزُ خيرًا من شَرٍّ، فسجَّلْتَ عليَّ حماقاتي قَبْلَ انتصاراتي، وإِذا أَفرَحَتْني اليومَ ذِكرى أَحزَنَتْني أُخرى، فأُهَدِّئُ روعَ نفسي وأَقولُ: هذا هو أَنتَ أَيُّها اللاّوعيُ، وهذهِ هي الحياةُ! فصُعودُ الجَبَلِ للصَّاعدينَ هو النُّزولُ عنهُ للنَّازلين، وما دامَ يَراعي بينَ أَصابِعي، وبَهاءُ لُغَتي جِسْرَ مَحَبَّةٍ ما بينَ قلبي وقُلوبِ المُحِبِّينَ أَراني مُلْزَمًا بِتَسْوِيَةِ الأَمْرِ بيني وبينَكَ، وأَنتَ الوَرْدةُ وأَنتَ الشَّوكةُ، وتَراني أَنتَ مُلْزَمًا بِتَعدادِ فضائِلكَ الّتي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، كما تدّعي، وحقيقةً إِنْ غِبْتَ عنِ المُبدِعِ حَضَرَ عَقْلُهُ، وإِن حَضَرْتَ غابَ. في هذا الغيابِ يَغْمِسُ الشَّاعرُ ريشَتَهُ في قَلْبِهِ ويخُطُّ بِدَمِهِ كلماتِ

قصيدَتِهِ.. في هذا الغيابِ يغمسُ الرَّسَّامُ فُرْشاتَهُ بأَلوانِهِ وأَشجانِهِ ويترُكُ ظِلالَ جُنونِهِ لوحَةً أَو جِداريَّةً أَو نوبَةَ فَرَحٍ تَأْخُذُ عَنَّا بَعضَ شقائنا.. في هذا الغيابِ يحملُ النَّحَّاتُ إِزميلاً بِيُسراهُ، ويحملُ مِطرقةً بِيُمناهُ ويُحيلُ صَخرَةً صَمَّاءَ إِلى تمثالِ حُرِّيَّةٍ أَو حُبٍ إِلهِيٍّ أَو جمال.. في هذا الغيابِ يحمِلُنا الموسيقيُّ على مِفتاحِ بيانو أَو وَتَرِ كمانٍ، فتسقُطُ عنّا آثامُنا وينقُلُنا اللَّحنُ إِلى عَوالِمَ ليسَ فيها ثوابٌ أَو عِقابٌ....

طوبى لِمُبدِعٍ يكونُ غيابُ وَعْيِهِ أَطْوَلَ من حُضورِهِ.

اللّهُمَّ إنِّي تَمَنَّيت!

اعتادَتْ زوجَتي أَن تَخْبِزَ خُبْزَها باكِرًا.. واعتادَتْ أَيضًا أَنْ توقِظَني كي أُساعِدَها في مُهِمَّتِها السَّاميةِ، فقد خَلَتِ الدَّارُ بعدَ ما مَرَّ علينا من سنينَ عِجافٍ وأُخرى سِمانٍ ولم يبقَ مَعَنا غيرُ شابٍّ أَعزبَ لهُ دولتُهُ المُستقِلَّةُ! وتخصُّصي في هذِهِ المُهِمَّةِ هو أَن أُحْضِرَ لِزَوجتي رُقاقاتِ العجينِ المُستَديرةِ الشَّكلِ، وتخَصُّصُها هي أَن تُدخِلَ هذِهِ الرُّقاقاتِ في الفُرْنِ لِتَخرُجَ خُبزًا مُحمَّرًا يفتَحُ شَهِيَّةَ مَنْ يُعاني من كِظَّةٍ دائمةٍ. أَنظُرُ إِلى الرَّغيفِ الخارجِ تَوًّا من قَلْبِ النَّارِ، فَأَرى حَقْلَ سَنابِلَ قدِ استَحصَدَ، وأَرى جُموعَ الحاصِدينَ مناجِلُهم في أَيديهِم، وحَبَّاتُ عَرَقِهِم على جِباهِهم.. وأَرى بَيادِرَ قد فارَقَتْها نَوارِجُها، وهَجَرَها دَرَّاسوها.. وأَنا هُنا لا أَرثي زَمانًا مَضى وانقَضى حيثُ كانَتْ سَعادَةُ الفَلاّحِ بينَ حَقْلٍ وبَيدَرٍ، بل أَرثي لِحالِ أَجيالٍ لَمْ ترَ بَهاءَ فِلَسطينَ بادِيًا في حُقولِ قَمْحِها وشَعيرِها وعَدَسِها، وظاهِرًا على أَكوامِ سَنابِلِها المَدْروسَةِ تَنْتَظِرُ مَذاري مُذَرِّيها، وَمُتَجَلِّيًا في طَواحينِ مائِها وبِدائيَّةِ أَفرانِها.

فما أَطولَ رحلتَكَ أَيُّها الرَّغيفُ، وما أَعظَمَ شَأْنَكَ.. إِن غِبْتَ عنَّا لَجَجْنا في طلَبِكَ وإِن حَضَرْتَ فَأَنتَ سَيِّدُ موائِدِنا، وإِن مُنِعْتَ عَنّا فَويلٌ لِمَنْ مَنَعَكَ عن أَفواهِنا ومِعَدِنا.

يا وَيلَهُ من غَضْبَةِ الجماهيرِ الّتي إِنْ غَضِبَتْ دُكَّتْ عروشٌ على رُؤوسِ مُلوكِها.

ويكفيكَ شَرَفًا ومَهابَةً أَنَّكَ إِذا وُجِدْتَ لَقَىً على الطَّريقِ التَقَطَتْكَ يَدُ أَيِّ عابرِ سبيلٍ لِتُقَبِّلَكَ ولِتَضَعَكَ في مكانٍ تكونُ فيهِ طَعامًا لِقارِضٍ أَو زاحِفٍ أَو طائر.

وليتَكَ تَصِلُ إِلى كُلِّ فَمٍ فلا ينامَ ساغِبٌ على سَغَبٍ!

سؤَالٌ مُحَيّر..

كُلّما حاوَلْتُ الابتِعادَ عن لُوثَةِ التَّأَمُّلِ في كُنْهِ هذهِ الحياةِ كُلَّما أَجِدُني قدِ اقْتَرَبْتُ من مَرْكزِها أَكْثَرَ، تمَامًا كَحَوّامِ الماءِ الّذي يَخْطَفُ السّابِحَ وَيَدورُ بهِ وَيَدورُ حَتّى يوصِلَهُ إِلى قاعِ البَحْرِ. كَمْ كُنْتُ أَتمَنّى أَن تَصْغُرَ أَحلامي لِتَطولَ أَيّامي، ليسَ بِمَعْنى أَن أَعيشَ أَكْثَرَ ولكِنْ بِمَعْنى أَن أَعيشَ أَوقاتًا سعيدَةً أَكْثَرَ.. فلا أَقولُ ما قالَهُ (جَبْرْ) عندَما مَرَّ بِقَرْيَةٍ نائيَةٍ وعَرَفَ أَنَّ الأَعمارَ هُناكَ تُحْسَبُ بِأَيّامِ السَّعادَةِ الّتي عاشَها الإِنْسانُ، قالَ: إِذا مُتُّ هُنا بَينَكُم فَاكْتُبوا على شاهِدَةِ قَبْري «هُنا يَرْقُدُ جَبْرْ، من بَطْنِ أُمِّهِ إِلى القَبْرْ».

والسُّؤَالُ المُحَيِّرُ فِعْلًا.. ماذا نُريدُ مِنَ الحياةِ!؟ فَإِذا كانَ الجوابُ نُريدُ السَّعادَةَ، إِذًا ما هيَ السَّعادَةُ، وما هيَ مَصادِرُها؟ هَلْ هيَ القُوَّةُ والجاهُ أَم هيَ كَنْزُ المالِ أَم هيَ سَطْوَةُ الجمالِ!؟ وَلَو تَوَفَّرَتْ هذِهِ لِشَخْصٍ ما، هَلْ يَكونُ قد قَبَضَ على السَّعادَةِ بِقَبْضَتَيهِ وَبِأَسنانِهِ كي لا تَفْلِتَ مِنْهُ، أَمْ تُرى يَظَلُّ (على قَلَقٍ) كَجَدِّنا (أَحمد بن الحُسين) ليُصْبِحَ السُّؤَالُ: هَلِ القَلَقُ نَقيضُ السَّعادَةِ؟ أَنا أَقولُ نَعَمْ. لَقَدْ عاشَ

أَجدادُنا الحياةَ «قِلّة وَبَسْط» وأَدْرَكوا بِالفِطْرَةِ أَنَّ السَّعادَةَ هيَ أَنْ تَنامَ وَأَبْوابُ بيتِكَ وشَبابيكُها مُفَتَّحَةٌ، غيرَ خائفٍ من حُلْكَةِ ليلٍ أَو حُلولِ وَيلٍ. هيَ أَنْ تَبْدَأَ يومَكَ بِبَسْمَةِ آمِنٍ لا بِعُبوسِ قانِطٍ.. هيَ أَنْ تَفْعَلَ الخيرَ فَتَكونَ خيرَ البَرِيَّةِ. كَيفَ؟ حينَ نَعمَلُ على تَحْقيقِ العَدالَةِ الاجتِماعِيَّةِ. كيفَ؟ حينَ نَلْجُمُ أَطْماعَنا وَنَكونُ أَسيادَ المادَّةِ لِنَكونَ قادِرينَ على لَجْمِ عَبيدِها..

رَحِمَ اللّهُ الشّاعِرَ اللّبنانِيَّ المُبْدِعَ ميشيل طراد (1912-1998)حينَ قالَ:

خِدْهُنْ صْناديق الدَّهَبْ

خودْ هَمْهُنْ عَنّي

عْطيني شي مُنْجَيرِةْ قَصَبْ

اسْكَرْ مَعَا وْغَنّي!

ما بِيَ داءٌ ولكنْ..

في ذاكَ الصَّباحِ، أَقصِدُ الصَّباحَ الّذي نَقَلْتُ فيهِ أَحاسيسي من مُطلَقِ الفِكْرِ والخَيالِ إِلى مَحدودِيَّةِ الأَحْرُفِ والكَلِماتِ، رَأَيتُني أَنْظُرُ إِلى الجَبَلِ قُبالَةَ بيتي فَلا أَرى شُموخَهُ يَنْتَشِلُني من سَآمَةِ روحي.. نَظَرْتُ إِلى أَشجارِهِ الخَضْراءِ المُتَماوِجَةِ تيهًا وَكِبْرًا، فَلَمْ تَبْعَثْ خُضْرَتُها خُضْرَةً في نَفْسي.. وَحينَ تَقافَزَتْ عَصافيرُ الدّورِيِّ المُشاغِبَةُ على دَرابْزينِ شُرْفَتي، اعتَقَدْتُ أَنَّها تَسْخَرُ مِنّي، فأَدَرْتُ وَجْهي صَوبَ أَصيصِ الحَبَقِ على مَطْلَعِ دَرَجِ داري، فَأَحْسَسْتُ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ مَنْ يَقْطِفُهُ ويَحْمِلُهُ إِلى طَقْسٍ جَنائزيٍّ لا إِلى زِفافِ عَروسَينِ...تَساءَلْتُ، وأَنا الماركسيَّ المُتَفائلَ دائماً: هَلْ أَنا مُصابٌ بِنَوبَةِ يَأْسٍ أَفْقَدَتْني الإِحساسَ بِجَمالِ ذاكَ الصَّباحِ! كدْتُ أَقْتَنِعُ بِأَنّي مُصابُ فِعْلًا لولا أَبو ماضي (1889-1959) الّذي أَطَلَّ عليَّ من نافِذَةِ أَبَدِيَّتِهِ قائِلًا

أَيُّهذا الشّاكي وما بِكَ داءٌ

كُنْ جَميلًا تَرَ الوجودَ جميلا

أَتَبَسَّمُ إِرْضاءً لِأَبي ماضي وأَجزِمُ مُقْنِعًا نَفْسي بِأَنّي لم أَكُنْ

شَكّاءً يومًا.. تمْتَدُّ يَدي إلى المِذياعِ لِأَعْرُكَ لهُ أُذُنَهُ، والقولُ لِشَيخِ السّاخِرينَ الكاتِبِ المِصْري عبد العزِّيز البِشري (1886-1943) عَلِّي أَسمَعُ ما يَفُكُّني من شِباكِ خَواطِري السَّوداويَّةِ. ولكنْ سُرعانَ ما أَعَدْتُ يدي لِأَنّي كُنْتُ على يَقينٍ بِأَنَّ ما سَأَسْمَعُهُ من أَخبارِ الفَقْرِ والقَهْرِ والغَرَقِ والحَرْقِ والقَتْلِ صَباحًا، سَأَراهُ بِأَلْوانِهِ الطَّبيعِيَّةِ صوتًا وصورَةً مَساءً. أَعودُ إلى المِذْياعِ ثانِيَةً عَلَّهُ يُسْمِعُني لَحْنًا يَنْشُرُ الأَمانَ في صَدْري، والهُدوءَ في أَعْصابي.. يَنْطَلِقُ صوتُ الصّافي الصّافيِّ يُغَنّي كَلِماتِ أَسعد فَرَح السّبعلي (1910-1999) (طَلَ الصّباح وتَكتَك العصفور...) لِيَقَعَ بَرْدًا وسَلامًا لا على قَلبِ الخليل ابراهيم، بل على قَلبي أَنا لولا طائرَةٌ فانتوم تَمُرُّ مُزَلْزِلَةً أَركانَ بيتي.. إلى أَينَ؟! إلى الشَّمالِ لِتَتَحَدّى طَيّارةً من وَرَقٍ يُطَيِّرُها طِفْلٌ فِلَسطينيٌّ بائسٌ في مُخَيَّمٍ أَشَدَّ بُؤْسًا.. فَإلى متى؟! إلى أَنْ يقضي اللّهُ أَمْرًا كانَ مَفْعولا...

كيفَ صِرتُ نباتيًّا....

يومَ قرأْتُ قصيدةَ (الحَبَشِيُّ الذَّبيح) لشاعرِ فِلَسطين إبراهيم

طوقان (1905–1941) وكانَ ذلكَ في مَطْلَعِ الشَّبابِ، استَوقَفَني سُؤالٌ صَعْبٌ يُسْتَشَفُّ من القصيدةِ: لماذا لا تَتِمُّ أَفراحُ النَّاسِ إلاّ على الذَّبحِ وإراقَةِ دماءِ حيوانٍ وديعٍ مُسْتَضْعَفٍ؟!وقد ذهبَ إبراهيم طوقان نفسُهُ أَبْعَدَ من ذلكَ إذ يقولُ في تَقْديمِهِ لِقصيدَتِهِ (...كذلكَ هي الأُمَمُ المغلوبةُ على أَمرِها، كانَتْ وما بَرِحَتْ، عروسَ الموائِدِ كالحَبَشِيِّ الذَّبيحِ. أَمَّا ريشُهُ فَتُحْشَى بِهِ الوَسائدُ، وأَمّا لحمُهُ فَتُحْشَى بِهِ البُطونُ– جريدةُ البَرْق1931–).

رُبَّ مُعْتَرِضٍ يقولُ: ولكِنَّ اللهَ حَلَّلَ لنا ذلك! أَقولُ: ما دامَ الأَمرُ كذلكَ لماذا لا تَأْكُلونَ الأُسُودَ والصُّقورَ بَدَلَ الغِزلانِ والحِجْلانِ؟ ثُمَّ تُسَمّونَ الحَيَوانَ آكِلَ اللُّحومِ مُفْتَرِسًا والإنسانَ مُتَحَضِّرًا، وكلاهُما يمُزِّقُ اللَّحْمَ تمَزيقًا، هذا بالشَّوكَةِ والسِّكينِ، وذاكَ بِأَظْفارِهِ وأَنْيابِهِ.

ورُبَّ مُعْتَرِضٍ آخَرَ يقولُ: إذًا، لماذا تَأْكُلُ الحيواناتُ بَعْضَها؟ أَقولُ: هنا تَكْمُنُ عَظَمَةُ الخالِقِ.. فقد وَهَبَ مَخْلوقاتِهِ غَريزَةَ صِراعِ البَقاءِ الّتي تُؤَدِّي إلى التَّعادُلِيَّةِ في الطَّبيعَةِ ومن ثَمَّ في الكونِ. وكما قالَ أَجدادُنا: «لا يموتُ الذِّئْبُ ولا يفنى الغَنَمَ».

لستُ داعيةً لأَدعو النَّاسَ للامتناعِ عن أَكلِ اللُّحومِ، ولا أَدَّعي بأَنَّني أَكثرُ عَطْفًا أَو أَرهَفُ إِحساسًا من غَيري، ولكنَّها وُجْهَةُ نَظَرٍ أَراها مَبْنِيَّةً على مَنْطِقٍ سليمٍ، فَسِرْتُ بِهَدْيِها. هي تَنْتَزِعُ مِنِّي غِلْظَتي وَحِدَّةِ طَبْعي، وأَنا أَنْتَزِعُ منها رِقَّةً تُجَمِّلُ إِنسانِيَّتي، وما دامَ الطَّعامُ مُتَوَفِّرًا بِأَنواعٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فَلِمَ إِراقَةُ الدِّماءِ إِذًا؟

ما أَجمَلَ هذا العالَمَ من دونِ إِراقَةِ دِماء!!

صَلاة..

رَبِّ! أَخْرِجْ لي ذاتي من سَوداوِيَّةٍ تقودُني إِلى حيثُ لا أَدري..

فطريقي طويلٌ.. وطريقي شاقٌّ.. وبُوْصَلَتي الّتي في يدي لا تُشيرُ إبرَتُها إلاّ إلى قُدْسِ فلَسطين.

رَبِّ.. ! لماذا بَنَيتُ أَنا وسكنَ غيري، وبَذرْتُ حِنْطَتي في حَقْلي فَحَصَدَ مَنْ لا بِذارَ ولا حَقْلَ لهُ، وخَبَزْتُ عجيني فَأَكَلَهُ مَنْ اغتَصَبَني حَقْلي وحَمَّلَني على ظَهْرِ دَبَّابَةٍ وقالَ: ارحَلْ.

رَبِّ! مَنْ أَنا؟؟ هل أَنا غريبٌ في غُرْبَتي أَم أَنا غَريبٌ في وَطَني، أَم أَنا غريبُ حيثُ تَطَأُ قَدَمي؟! أَلا يكفي أَنْ حَمَلْتُ وطني طَعْنَةَ غَدْرٍ أوجاعُها لا تُفارِقُ خاصِرَتي.. بكيتُ فَسَقَطَ دَمْعي أُجاجًا، وتَنَهَّدْتُ فَخَرَجَتْ تَنَهُّداتي أَجيجًا. جَعَلْتُ ساعَتي مَطِيَّتي ودُرْتُ مُعاكِسًا دَوْرَتَها عَلَّها تَعودُ إلى دَورَتِها الأُولى فَأَعودَ إلى مَصادِرِ فَرَحي.

رَبِّ! لماذا إذا صَرَخْتُ لا يَسْمَعُ صُراخي أَحَدٌ سِوى جِبالٍ تُرَدِّدُ صَرَخاتي صَدَىً حَزينًا.. وإذا هُم صَرَخوا فاضَتِ القُلوبُ أَلَمًا، وَتَرَقْرَقَ الدَّمْعُ في المآقي حُنُوًّا، وامْتَلأَ البَحْرُ بِالبَوارِجِ الحَرْبِيَّةِ، وِضاقَ الفَضاءُ بِالقاذِفاتِ، وَزَحَفَتْ جُيوشٌ، وَنُصِّبَتْ مدافِعُ أُهْبَةً لِقَصْفِ طِفْلٍ على بابِ بَيتِهِ المُحاصَرِ يَعْبَثُ بِبُنْدُقِيَّةِ بلاستك اشتَراها لَهُ والِدُهُ لِيَومِ العيد.

رَبِّ! لماذا كُلَّما رفعْتُ نحوكَ وجهي ضارِعًا قالوا: انظُروا

هو ذا الكافِرُ يلعَنُ السَّماءَ، وإذا سهِرْتُ اللَّيلَ قائماً للصَّلاةِ قالوا: احذَروا إنَّهُ لِصٌّ يَترَبَّصُ بنا لِيسْرِقَ من أَطفالِنا فَرَحَهم وأَمنَهم.

رَبِّ! أَخرِجْني من مُستَنقَعٍ مَلأُوهُ بِدَمي ثُمَّ أَلقَوْني بهِ وقالوا: لا وَطَنَ لكَ سِوى هذا!!!

وما إنْ أَنهَيتُ صَلاتي حتّى شَعرْتُ بِأَنَّ شَجَرَةً خَضراءَ قد نَبَتَتْ وأَزْهَرَتْ في صَدري، فَخَرِسَتِ الغَرابينُ السّودُ الغَرابيبُ، وَغَرَّدَتْ شَحاريرُ، وَشَدَتْ بَلابِل.

ديسمبر شهرُ الفِداء...

تُرى.. بماذا يُفَكِّرُ البائسونَ حينَ يستيقِظون؟! هل يُفكِّرونَ بنُزْهةٍ بَرِّيَّةٍ أَو بَحْريَّةٍ تكْشِطُ عن قُلوبِهم ما يُغلِّفُها من سآمَةٍ

وقُنوطٍ، أَم يُفكِّرونَ بِرغيفِ خُبْزٍ يُخرِسُ صُراخَ مِعَدِهم ومِعَدِ أَطفالِهم، وبِقليلٍ من مالٍ شريفٍ يُبْعِدُ عن كراماتِهم ذُلَّ السُّؤَال.

سُؤَالٌ قد يكونُ مُسْتَهجَنًا في عَصْرِنا هذا! عَصْرِ الكُمبيوتَرِ والآيْفون حيثُ صارَ البعيدُ قريبًا، والمُستَعْصي منَ الأُمورِ أَمرًا سهلًا. وإِذا كانَ الكاتبُ الأمريكيُّ السّاخِرُ مارك توين (1835–1910) قد وقفَ مَبْهورًا أَمامَ القاطِرةِ والباخِرَةِ والتّلغراف وهَتَفَ: ما العالَمُ إِلّا قريةٌ صغيرةٌ! فما عساهُ يقولُ اليومَ إِذا رأَى ما وصلَ إِليهِ الإِنسانُ من حضارةٍ!! هذهِ الحضارَةُ الّتي كانَ يَجِبُ أَن يَعُمَّ خيرُها على العائلةِ البَشَرِيَّةِ، لا أَن تَزيدَ من عَنائِها، فَيُمْسي أَفْرادُها على قَلَقٍ، ويُصْبِحونَ على رَهْبَةٍ من آتي الأَيَّام.

لا أَعتَقِدُ أَنَّ الحناجِرَ الّتي تَصرُخُ اليومَ عالِيًا في شَرْقِ عالَمِنا وغَرْبِهِ (نُريدُ العدالَةَ الاجتماعِيَّةَ) قد أَطلَقَتْ صَرَخاتِها بعدَ أَن قَرَأَ أَصْحابُها التَّاريخَ وفَهِموا جَدَلِيَّتَهُ.

إِنَّها اللُّقْمَةُ بَعْدَ أَن عَزَّتْ، حَرَّكَتِ البُطونَ الخاوِيَةَ فانطَلَقَ ذاكَ الهَديرُ الغَريزِيُ يُطالِبُ مَنْ لا يَفْهَمونَ لُغَةً سوى لُغَةِ الأَرقامِ، ولا يَتَحَدَّثونَ إِلاّ بِسَطْوَةِ الملايين بِإِعادَةِ حُقوقٍ لهم

قد اغْتُصِبَتْ، وبِقِسْمَةٍ لا تكونُ القِسْمَةَ الضَّيزى.

أَعودُ إِلى سُؤَالي الاستِنْكارِيِّ ذاك.. تُرى بِماذا يُفَكِّرُ البائِسون!؟ لا أَدري عَدَدَ الّذينَ قد يَسْتَهجِنونَ سُؤَالي هذا مُعْتَقِدينَ أَنَّنا نعيشُ في عَصْرٍ لا أَحَدَ فيهِ يموتُ من جوع. مَهْلًا! نَحْنُ في شَهْرِ فادي البَشَرِيَّةِ يسوع، وإِذا كانَ قَدِ افتَدى آلامَ وآثامَ البشرِيَّةِ بِحياتِه، فَمَنْ تُراهُ يفتَدي/يُشْبِعُ اليومَ مليارَدَ إِنسانٍ يَنْهَشُ الجوعُ أَحْشاءَهم، وتَحني المَهانَةُ رِقابَهم...مَنْ؟!

سيناريو آخر...

قد يُسأَلُ السُّؤَالُ: ما الأَجملُ في الفِلَسطينيّ؟ وقد يدورُ في خَلَدنا ما حَسُنَ من صفاتٍ كالصّدقِ والوفاءِ والشَّجاعةِ

والصَّبرِ وما إلى ذلك، ولا نفطَنُ أَنَّ الأَجملَ في هذا الجميلِ هو الذَّاكرة.. فالذّاكرةُ حبلٌ سُرِّيٌ بين ما كان وما سيكونُ وما هو كائِنٌ.. الذّاكرةُ بوصلةُ الضّاربينَ في الأَرضِ لا تُشيرُ إبرتُها إلاّ الى اتّجاهٍ واحدٍ.. الذّاكرةُ أَمانٌ دائِمٌ لِصاحبِ حقٍّ اغتُصِبَ حقُّهُ، وهو قلقٌ دائِمٌ لِمَنْ يغتصبُ حقًّا.. الذّاكرةُ أَنْ لا ننسى أَنَّ النّسيانَ قاتِلٌ بالمجّانِ لدى الأَيّامِ، وكلّما تراكمَتْ فوق أَكتافِنا كُلَّما ازدادتْ شهيّتُهُ انفتاحا وشراهةً.. الذّاكرةُ ثلاثٌ وسِتّونَ قَسَمًا يؤَكِدُ العهْدَ بين عاشِقٍ ومعشوقٍ.. فالفِلَسطينيّ إذا أَحبَّ عشِقَ، وإذا عشقَ تَوَلَّهَ.. ووَيْلٌ لتُجّارِ العِشْقِ من المُوَلَّهين.. فعشْقُ فِلَسطينَ لا يأْتي مع مُهاجِرٍ على جَناحِ طائرةٍ.. ولا يأْتي على ظَهْرِ سفينةِ قُرْصانٍ.. عِشقُ فِلَسطينَ يأْتي من رَحِمِها ومن دفاترِ الأَيّامِ.. فإذا قالوا داوودُ وسُلَيمانُ، قُلْنا لهم كَنعان.. وإذا قالوا أُورشليم قُلْنا لهم يَبوس.. فأَين المفرُّ من ذاكرةٍ كحدِّ سكّينٍ تُحاصِرُ مُزَوّري التّاريخِ؟! وتاريخُ فِلَسطينَ غيرُ قابِلٍ للتَّزويرِ أَو التّبديلِ أَو التّعديل.. إِنَّهُ حروفٌ من نورٍ كُتِبَتْ على صحائِفَ من نارٍ.. وفِلَسطينُ هي فِلَسطينُ، جَبَلُ وسَهْلٌ وبَحْرٌ، قوامٌ جميلٌ غيرُ قابِلٍ للانشطارِ، فإِنْ قطَّعَتْهُ حِرابُ أَغبياءِ التّاريخِ عادَ

وتجمَّعَ كأُوزيريس قطعةً قطعةً لِيُصبحَ جسدًا سَوِيًّا..

رحمَ اللّهُ أَميرَ الشُّعراءِ أَحمد شوقي حينَ قالَ:

قد يهونُ العُمْرُ إِلاّ ساعةً

وتهونُ الأرضُ إِلاّ موضِعا

ورحمَ اللّهُ أَبا الحسنِ عَليَّ بن العبّاسِ المعروفَ بابنِ الرّوميّ حين قالَ:

ولي وَطَنٌ آليتُ أَلاّ أَبيعَهُ

وأَلاّ أَرى غيري لهُ الدَّهرَ مالكا

وقدْ ضامَني فيهِ لئيمٌ وعزَّني

وها أَنا منهُ مُعْصِمٌ بحبالِكا

فيا أَبناءَ فِلَسطينَ حيثُما تكونونَ، ويا أَحفادَها ويا أَحفادَ أَحفادِها، لِنقرَأْ سيناريو الحياةِ على أَنَّ قُرانا لا تزالُ عامرةً بأَهلِها.. تصوَّروا لو أَنَّ سُحماتا اليومَ عامرةٌ بِدورِها، زاهرةٌ بأَنوارِها، لكُنّا سِرْنا في طُرُقاتِها زُوّارًا مُعَزَّزينَ مُكَرَّمينَ ولكانتْ (أَهلًا وسهلًا) و(تفضَّلوا.. البيوتُ بيوتُكم) على كُلِّ شَفَةٍ وعلى كُلِّ لسانٍ.. وَلَكانَ يجمعُنا سلامٌ على الأرضِ ومسرَّةٌ في النّاسِ.. ولَكُنّا غَنَّينا مع السَّاحِرَةِ فيروز من

كلمات الشّاعرِ الفِلَسطينيِّ الغَزِّيِّ هارون هاشم رشيد مع تعديلٍ هامٍّ: مُقيمونَ نحنُ وذا حَيُّنا وليسَ: سنرجعُ يوماً إلى حَيِّنا.. ولكانتْ رائِحةُ القهوةِ تُوزِّعُ الأَصالةَ العربيَّةَ في كُلِّ مكان.. ولكُنّا دخلْنا البيوتَ فأكلْنا من خُبْزِ طوابينِها، ومن زيتِ زيتونِها، ومن سعترِ حقولِها. هذهِ هي قُرانا.. هذهِ هي سُحماتا.. ولا أَقولُ كانتْ بل هي مُقيمَةٌ ليس في ذاكرتِنا ووِجداننا فقط بل على أَرضٍ تحملُ جيناتِنا ونحملُ جيناتِها، ومَنْ حملَ جيناتِ والديهِ يكنِ الابنَ الشَّرعيَّ لهُما. نحنُ أَبناءُ هذا الوطنِ.. لا نقولُها لِنَسْمَعَها نحنُ تأَكيدًا.. ولا لِيَسمعَها أَبناؤُنا وأَحفادُنا فقط، ولا لِنُسْمِعَ هذا العالمَ الأَصمَّ القاسي قولَنا بل لِأَنَّ رُبى هذا الوطنِ تُحِبُّ سَماعَها، وتخضَرُّ أَملًا حينَ نقولُها..

المخدوعونَ بانتصاراتِهم..

ماذا ستفعلونَ أَكثرَ مِمّا فعلتُم؟!وإِلى أَينَ ستصلونَ أَبعدَ مِمّا وصلْتُم؟!

تساؤُلٌ استنكاريٌّ قد يكونُ زَفْرَةَ أُمٍّ أَطلقتْ الرَّصاصَ على

أَبنائِها وأَحفادِها ففقَدَتْ أَكثرَ من ابنٍ وأَكثرَ من حفيد.. وقد يكونُ دَمْعَةَ شيخٍ يجلسُ على رُكامِ بيتٍ بناهُ حَجَرًا على حجر، وجُهْدًا على جُهْد، ويومًا على يوم، فهدَمْتُموهُ بِطرْفَةِ عين.. وقد يكونُ أَنَّاتِ زيتونةٍ غَرَسَتْها يدُ الأَجداد، فاقْتَلَعَتْها يدُ الاسْتِبْدادِ، وقد يكونُ.. وقد يكونُ...فارْفَعوا أَنخابَ انتِصاراتِكُم.. اشرَبوها ولا تَسأَلُوا عن مُلوحَتِها. فالمخدوعونَ بانْتصاراتِهم على يدٍ عَزْلاءَ لا يُمَيِّزونَ بينَ كأْسٍ تَفيضُ شَرابًا، وبينَ كأْسٍ تَفيضُ دَمًا. واجلسوا على صَحْوٍ لا على سُكْرٍ، وسجِّلوا بخطٍّ توراتيٍّ، هزائِمَ جُلْيات وانتِصاراتِ داود. ولكنْ لا تَنْسَوا أَنَّ تاريخَنا محفورٌ على صَخْرٍ، وأَنَّ تاريخَكم مُعَلَّقٌ على غيمةِ صَيف.

أَنزِلونا عن رُؤُوسِ رِماحِكُم! انظُروا إِلينا بِعُيونِكُمْ لا بِعُيونِ بنادِقِكم! فقد مَلَلْنا مَشْهَدَ الذَّابِحِ والمَذبوحِ.. وليتَنا نَتَبادَلُ الأَدوارَ ساعَةً لِنَمْسَحَ عَنَّا جِراحَنا، ونمْسَحَ عَنْكُم أَحقادَكُم، ونَسيرَ في الطُّرُقاتِ آمِنينَ نُنْشِدُ لَحْنًا أُمَمِيًّا خالِدًا. وليتَكُم تعْلَمونَ أَنَّ السَّماءَ تُمْطِرُ قَطْرًا، وتُمْطِرُ حِجارَةً من سِجِّيل.. وأَنَّ الأَرضَ تُنْبِتُ زَنابِقَ وتُنْبِتُ براكين. فانْزِلوا عن قِمَّةِ(مسّادا) لِتَرَوا أَنَّ في الأَرضِ جَمالًا تراهُ القُلوبُ قَبْلَ أَنْ

تَراهُ العُيون، وأَنَّ في السَّماءِ قَمَرًا يُضيءُ عَتْمَةَ القُلوبِ قَبْلَ أَنْ يُضيءَ عَتْمَةَ الدُّروب. وقد تَقولونَ: ما هذهِ إلّا أَحلامُ شاعِر.. وأَقولُ لكُم: وما العَيْبُ في ذلك؟ إنَّ أَحلامَ شاعِرٍ مَجْنونٍ خَيْرٌ من أَلْفِ أَلْفِ حُلُمٍ لِقادَةٍ فاتِحين.. أَو رُبَّما تقولونَ تلكَ المقولَةَ المشهورةَ: عندما تُرْعِدُ المدافِعُ يصمتُ الشِّعر. فأَقولُ لَكَمْ ما قلتُ مَرَّةً:

حينَ هزَّ الكونَ صوتٌ هَمَجيّ

ضَحِكَتْ حَبَّةُ قَمْحٍ ثُمَّ قالتْ:

أَنتَ يا مِدفَعُ شيءٌ بَرْبَريّ

وأَنا روحُ نَبِيّ..

مُفارَقَةٌ غَريبَةٌ..

بعيدًا.. بعيدًا عن جدليَّةِ القضاءِ والقَدَرِ.. كثيرًا ما أَسأَلُ نَفْسي: لماذا كُتِبَ علينا كُلُّ هذا العَناءِ؟! وبِالحقيقةِ هو تَساؤُلٌ وليسَ سُؤَالًا أَنتظِرُ لهُ جوابًا.. وعندَما أَقولُ «علينا» أَقصِدُ نحنُ الفِلَسْطينيّين المُنْزَرعينَ في وَطَنِنا، الباقينَ في دولَةٍ ليسَ في حِساباتِها أَن تكونَ راعِيةً لنا، وليسَ في حِساباتِنا

نحنُ أَن نَرضى بِأَقَلَّ من العيشِ الكريمِ، وأَنَّ أَبناءَ هاجرَ ليسوا أَقلَّ شَأْنًا من أَبناءِ سارةَ وإِبراهيم. وأَنَّ بوصلةَ العدالةِ الاجتماعيَّةِ تُشيرُ إِلى أَنَّ الجائعَ أَخو الجائعِ كائنًا مَنْ كانَ. وحينَ يَخْطَفونَ اللُّقمةَ من فمِ الشَّعبِ، ويبنونَ «إِسْبرتاهم» فإِنَّهُمْ يبنونَ دولةً تَأْكُلُ أَبناءَها، ويَعجَزونَ عن أَنْ يُماشوا الرَّكْبَ الحضاريَّ البَشَريَّ الَّذي يعملُ على جَعْلِ كُلِّ شيءٍ في خِدمَةِ الإِنسانِ، لا أَنْ يجعلَ الفاشِيَّةَ دينًا ودَيدَنًا.

-أَوقَفَ الشُّرْطِيُّ سيَّارةَ الأُجرةِ الَّتى تُقِلُّنا، تفَرَّسَ في وُجوهِنا ثُمَّ أَشارَ إِلى أَشَدِنا سُمْرَةً وقالَ: هُوِيّة...ضحكنا! فَصاحَ مُغْضَبًا: لِمَ تَضْحَكونَ؟ رَدَّ السَّائقُ: يا سَيِّدي إِنَّهُ اليهودِيُّ الوَحيدُ بينَنا!!

ولِلْمُفارَقاتِ المُثيرَةِ لِلْعَجَبِ ما حَدَّثَني بِهِ أَحَدُ الأَصدِقاءِ قالَ: كُنْتُ في طَريقي إِلى العَمَلِ في المدينَةِ، وفي إِحدى المَحَطَّاتِ صَعِدَتْ عجوزٌ أَنْهَكَتْها سَنَواتُ العُمْرِ، نَقَدَتِ السَّائقَ ثَمَنَ التَّذْكِرةِ وجالَتْ بِعَينَيها عَلَّها تَجِدُ مَقعَدًا شاغِرًا، وكانَتِ الحافِلَةُ غاصّةً بالرُّكّابِ، نَظَرَتْ نَظْرَةَ استعطافٍ كَأَنَّها تقولُ: هَلْ من كَريمٍ يتنازلُ لي عن مَقْعَدِهِ! لا أَحَد.. قلتُ لها: تَفَضَّلي يا جَدَّتي، هاكِ مقعَدي. نَظَرَتْ في عينَيَّ وقالَتْ: أَشْكُرُكَ..

أَنتَ يهودِيٌّ طَيِّبٌ. قُلْتُ مُبْتَسِمًا: عَفْوًا يا جَدَّتي، بَلْ أَنا عَرَبِيٌّ طَيِّبٌ! أَنا العَرَبِيُّ الوحيدُ في هذهِ الحافِلَةِ.

والحَقُّ يُقالُ: إِنَّني عندَما أَرى فَتاةً يهودِيَّةً إِلى جانِبِ فَتاةٍ عَرَبِيَّةٍ تَهْتِفانِ مَعًا: العَمَلَ الخُبْزَ العَدالَةَ.. أَرى «ماركس» يُلَوِّحُ بِيَدِهِ من بَعيدٍ، فَأَمْسَحُ دَمْعَةً مالِحَةً وأَبْتَسِم.

شمسُ فِلَسطين...

على مدخلِ بيتي شجرةُ (كَلِسْتيمون).. وهي من أَشجارِ الزِّينةِ الجميلةِ، تُزْهِرُ في الرَّبيعِ أَزهارًا حمراءَ تُشبهُ بِشكلِها العِرناسيِّ فُرْشَةَ القوارير. كريمةٌ هذهِ الشَّجرةُ بما تَهَبُهُ من بهجةٍ لِلنَّاظرينَ، حَنونةٌ بِكونِها مَحَطًّا آمنًا لِلْعَصافيرِ تَؤُمُّها مُستجيرةً بِظِلِّها الظَّليلِ، صديقةٌ وَفِيَّةٌ آنَسُ بها وبما يأْتيها

من الطَّيرِ كلَّ شُروقِ شمس.

وأَكثرُ ما شدَّ انتباهي طائرٌ مُمَيَّزٌ لا يُفارِقُها.. إِنَّهُ صغيرُ الحجمِ، سريعُ الحَرَكَةِ لا يهدأُ، ذو مِنقارٍ طويلٍ حادٍّ، وزُرْقَةٍ لَمَّاعةٍ تكسِرُ سوادَ ريشِهِ. أَمَّا أُنثاهُ بلونِها الرَّماديِّ فلا تَتْرُكُهُ لحظةً، تطيرُ إِذا طارَ وتحُطُّ حيثُما يَحُطُّ كأَجملِ عاشقينِ..

كم كانَ فرحي كبيرًا بهذا الطَّائرِ النَّطَّاطِ الجميلِ! وزادَتْ فرحَتي بِهِ بعدَ أَنِ اكتشفْتُ أَنَّهُ تَخِذَ شَجَرتي وَطَنًا، فبنى لهُ بيتًا بينَ زُهورِها على أُملودٍ تَدَلَّى كَعُنقودِ عِنَبٍ صغيرٍ، لكنْ ليسَ من السَّهلِ رُؤْيتُهُ.

لِهذا الطَّائرِ طريقةٌ غريبَةٌ في دُخولِ عُشِّهِ، فهو لا يأْتيهِ مُباشَرَةً بل يقفُ على غُصْنٍ بعيدٍ عنهُ، يهُزُّ ذَنَبَهُ هَزًّا سريعًا، ويُطلقُ أَصواتًا مُتَنَوِّعَةَ الأَلحانِ ثُمَّ يترُكُهُ لِينتقلَ إِلى غُصنٍ آخَرَ فآخَرَ، ثُمَّ يختفي فَجْأَةً لا تدري كيفَ، ولكنَّكَ تدري بِحَدْسِكَ إِلى أَين... تَتَساءَلُ: مَنْ علَّمَ هذا الطّائرَ الصَّغيرَ الجميلَ كيفَ يختارُ الحدائِقَ وَطَنًا له؟ مَنْ علَّمَهُ كيفَ يبني عُشَّهُ على طرَفِ غُصْنٍ لا يحملُ وَزْنًا فوقَ وَزْنِهِ، وكيفَ يمُوِّهُ على أَعدائِهِ خُروجَهُ ودُخولَهُ فيه؟! مَنْ أَفْهَمَهُ أَنَّ لِلوطَنِ مَعَزَّةً يُفْتَدى من أَجلِها، وأَنَّ لِلبَيتِ حُرْمَةً تستحقُّ الدِّفاعَ عنها،

والموتَ في سَبيلِها؟! إنَّها الغريزةُ...أَجَلْ.. إنَّها غريزَةُ حُبِّ الوطَنِ والأَهلِ والحياةِ!

لنْ أُنهي نَصِّيَ هذا قَبْلَ أَنْ أُخبرَكم بِاسمِ طائِري الجميلِ هذا.. إنَّهُ (Palestine sunbird).. إنَّهُ طائرُ شَمسِ فِلَسطين...

اتْرُكْ قَلْبَكَ ها هُنا!

حملتُ قلبي على راحتي وسرْتُ بين أَطلالِ قريةٍ تَلبَسُ الحُزنَ رداءً وطولَ الانتظارِ تميمةً.. وكانَ عندليبٌ يقفُ على غُصنِ داليةٍ أَنهكَها الشَّوقُ إلى غارِسِها قبلَ أَنْ تصعقَهُ ألصّاعِقَةُ، قالَ: انظُرُوا ها هو المجنونُ قد أَتى! نظرْتُ إليهِ نَظْرَةَ مُحِبٍّ عاتِبٍ وقلتُ: قلبي عَنْدَليبٌ مِثْلُكَ والعنادِلُ لا تُحِبُّ الأَقفاصَ.. صَمَتَ هُنَيهَةً ثُمَّ راحَ يُنْشِدُ لَحْنًا جنائزيًّا. بادلْتُهُ حُزنًا بِحُزنٍ وتابَعْتُ مارًّا بِشَجَرَةِ صَبَّارٍ، ولِلصَّبَّارِ لُغَةٌ لا يَفْهَمُها سِوى الصَّابِرينَ، فقلْتُ في نَفْسي: ما أَثْقَلَ الصَّبْرَ على قَلبي حينَ

يكونُ العَزاءَ الوحيدَ لِلْقُلوبِ المُحَطَّمَة!

والتِّينَةُ الَّتي تَخْلَعُ خُضرَتَها شِتاءً وتَستعيدُها رَبيعًا عَرَفَتْ باكرًا كيفَ تُكَفِّرُ عنْ رُوحِ غارِسِها وكيفَ تَرْفَعُ ذِكْراهُ عالياً بِما تَهَبَهُ لِلْعابِرينَ مِنْ طَيِّبِ ثِمارِها، نَظَرَتْ إِليَّ فقلْتُ لَها: يا الَّتي تُخَلِّدينَ ذِكْرى غارِسِكِ هاكِ قَلْبي حُبًّا وتَقْديرًا! فاعْتَذَرَتْ بِوَداعَةٍ وقالَتْ: أَكْرِمْ بِكَ مِنْ سَخِيٍّ وَفِيّ! ولكنْ هُنالِكَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ مِنِّي بِقَلْبِك.

والزَّيتونَةُ الَّتي قَطَّعَ أَوصالَها جنودٌ فاتِحونَ، وأَنْضَجُوا طَعامَهم على نارِ عيدانِها، بَرْعَمَتْ مِنْ جَديدٍ وارْتَفَعَتْ أَغْصانُها تَتَحَدَّى حَديدَ الجُنودِ ولَهيبَ نارِهم، قلتُ: إِذًا أَنتِ الَّتي تَستَحِقُّ قَلْبِي، فَخُذيهِ أَيقونَةً تَقِيكِ مِنْ شَرِّ غاصِبين؛ لَمْ تُجِبْ ولكِنَّها تمايَلَتْ مَعَ نَسْمَةٍ عابِرَةٍ إِعْزازًا وشُكْرانًا.

ثُمَّ قادَتْني خُطايَ إِلى بَقايا حاكورةٍ قَلَّتْ أَزْهارُها وأَثْمارُها وكَثُرتْ أَحساكُها، وقبلَ أَنْ تَطَأَها قَدَمايَ جاءَني صَوتٌ لا أَدْري مِنْ أَينَ وصاحَ بي: اخْلَعْ نَعْلَيكَ، هَذِهِ الأَرْضُ المُقَدَّسَةُ وَقْفٌ على أَصْحابِها! تَراجَعْتُ وسَلَكْتُ طَريقًا آخرَ قادَني إِلى آثارِ بَيتٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوى حِجارَتِه؛ حَيَّيتُهُ فقالَ: إِنْ كُنْتَ شاعِرًا فَقِفْ على أَطلالي وابْكِني! لَمْ أَقِفْ ولَمْ أَبْكِ فالمَجانينُ لا يَبْكُون.

وعِنْدَ بِئرٍ جَفَّفَتْ ماءَها الأَيَّامُ ومَلَأتْها طِينًا، رَأَيتُ صَبايا جَميلاتٍ -أَو هذا ما تَراءَى لي- يَتَدافَعْنَ ويَتَضاحَكْنَ، انتَبَهَتْ أَجْمَلُهُنَّ لِوُجودِي وقَلْبِي مازالَ على راحَتي، قالتْ: لِمَنْ ستَهَبُ قَلْبَكَ أَيُّها المَجنونُ العاشِق؟ قلتُ: لِلَّتي تُريدُهُ مِنْكُنَّ. مَسَحَتْ دَمْعَةً عن خَدِّها الوَرْدِيِّ وقالَتْ: اتْرُكْ قَلبَكَ ها هُنا على حَافَّةِ هَذِهِ البِئْرِ حَيثُ جَلَسَ طِفْلٌ مَنْسِيٌّ، وجَلَسَ.. وجَلَسَ.. إِلى أَنْ حَمَلَتْهُ المَلائِكةُ إِلى عَوالِمِها.. ولَكِنَّهُ وَعَدَنا بِأَنَّه سَيَعودُ فارِسًا راكِبًا صَهْوةَ العاصِفَة..

قَوسُ قُزَح..

كنتُ صَغيراً لا أُدْرِكُ لماذا تُشْرِقُ الشَّمسُ منَ الشَّرْقِ وَتَغْرُبُ وَراءَ زُرْقَةِ البَحرِ الكبيرِ في جِهَةِ الغَرْبِ. ولكنّي كُنْتُ أُدرِكُ أَنَّها تَقسو عَلينا صَيفًا، فَتَجْلِدُنا بِسِياطٍ حارَّةٍ تَقْشِرُ لنا جُلودَنا، ولا يُسْعِفُنا غيرُ عَينِ البَلَدِ نَتَراشَقُ بِمائِها البارِدِ ساعاتٍ وساعات. وكُنْتُ أُدْرِكُ أَنَّها كانَتْ رحيمَةً بِنا، عطوفَةً على طَراوَةِ أَجْسادِنا حينَ تُطِلُّ من وراءِ الغُيومِ على قُرانا الجَبَلِيَّةِ الجَليلِيَّةِ الباردَةِ أَيَّامَ الشِّتاءِ. وكُنّا نَتْرُكُ رُطوبَةَ بيوتِنا التُّرابِيَّةِ، على الغالِبِ، ونَخْرُجُ لاسْتِقْبالِها فَرِحينَ، نَغْتَسِلُ

بِدِفْئِها مُنْشِدينَ:

طِلْعِتْ الشْميسِهْ على كْرومْ عيشِهْ

عيشِهْ في لِمْغارَهْ مَعاها بِسّه وْفارَهْ

عَمْ بِطَّفّي نارَهْ تَ تِلْعَبْ في الْحارَهْ ...

والغُيومُ الَّتى كانَتْ كَالجِمالِ الضَّالَّةِ في الصَّحراءِ، ما أَسْرَعَ ما تَتَقاطَرُ فَتَسيرُ مُثْقَلَةً بِأَحْمالِها، وتَحْجُبُ عَينَ الشَّمْسِ عَنّا لِنَعودَ إِلى البيوتِ هَرَبًا من تَساقُطِ المَطَرِ، وطَلَبًا لِدِفْءِ المَوقِدِ الَّذي لا يَشْبَعُ مَهما أَلْقَمْناهُ من حَطَبٍ كانَ آباؤُنا قدِ احتَطَبوهُ أَيَّامَ الصَّيفِ.

ما أَكرَمَ السَّماءَ ساعةَ تُمطِرُ لِتُعيدَ لِلْأَرضِ خُصوبَتَها فَيَنتَفِضَ الزَّرْعُ، وتتفجَّرَ الينابيعُ والسَّواقي، وتفيضَ قُلوبُ الفَلاَّحينَ بَهجَةً وَشُكورًا.

وكَمْ كانَ دَهَشي وانشِراحُ صَدْري بِرُؤْيةِ قوسِ قُزَحٍ!! وكَمْ تَساءَلتُ: أَيَّةُ يَدٍ خَفِيَّةٍ رَسَمَتْ، وبِمعاييرَ هَنْدَسِيَّةٍ دقيقَةٍ هذا القوسَ السَّماويَّ الّذي يَصِلُ الأُفُقَ بالأُفُقِ ويَنتَشِرُ في السَّماءِ بَهاءً وفي النُّفوسِ حُبًّا وأَمَلًا وإِقْبالًا على الحياةِ. تقولُ المُعَلِّمَةُ: الشَّمْسُ تُعطينا الضَّوءَ والدِّفْءَ، وتُعْطِي أَلْوانَها

الجميلَةَ لِقوسِ قُزَحٍ. وتقولُ أُمِّي:(إِنْ قَوَّسَتْ باكِرْ احْمِلْ عَصاكَ وسافِرْ، وإِنْ قَوَّسَتْ عَشِيّهْ دَوِّرْ عَ قُرْنِهْ دَفِيِّهْ).

أَيَّتُها الذَّاكِرَةُ! أَستَحْلِفُكِ بِاللّهِ أَنْ تَظَلّي قَوِيَّةً ناشِطَةً لِأَتَذَكَّرَ طُفولَةً يكادُ يَخْنُقُها تَراكُمُ الأَيّامِ وثِقْلُ السِّنينَ. وهَلِ الذَّاكِرَةُ سِوى ذاكَ الحَبْلِ السُّرِّيِّ الّذي يَمُدُّني بِحُبِّ وَطَني؟! وَطَني الَّذي لمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ على أَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ قَناعَتي بِأَنْ لا قَوسَ قُزَحٍ إِلَّا في وَطَني! وأَنَّهُ لي.. لي.. وَحْدي!

لُغَتُنا العَرَبِيَّة...

لا أَدري مَنْ كانَ أَوَّلَ النّاطقينَ بِلُغتِنا الجميلةِ، ولكنّي أَعلمُ عِلْمَ اليقينِ أَنَّهُ كانَ عاشقًا.. وأَعلمُ أَيضًا أَنَّ العِشْقَ لا ينتقلُ من عاشِقٍ إِلى معشوقٍ بِنَوحِ مُطَوَّقَةٍ أَو بِزَقْزَقَةِ عُصفورٍ أَو بِحنينِ ناقةٍ فقط، بل ينتقلُ بِلُغَةٍ أَخذتْ من أَجملِ الأَصواتِ جَرسَها، ومن أَبهى الحروفِ قَوامَها، ومن أَبلغِ البيانِ جِلبابَها.

اللُّغةُ رَسولٌ بينَ عَقلينِ وقَلبين، فإِنْ كانَ أَمينًا أَمطرتِ السَّماءُ قصائدَ شعْرٍ، وإِنْ كانَ خائِنًا أَعولَتْ رياحٌ وغارَتْ نجومٌ وانتحرَ أَلفُ قَمَر.. اللّغةُ أَنْ تَحُكَّ الفِكْرَ بالفِكْرِ لِينتشرَ النُّورُ على الأَرضِ، والرِّضى في السَّماءِ.. اللُّغةُ أَنْ تقولَ للحبيبِ:

أَنا أُحِبُّكَ وأَنْ تقولَ لِمُبْغِضٍ أَنا لا أَكرهُكَ.. وأَنْ تقولَ للوَطَنِ: أَنا أَنتَ وأَنتَ أَنا، فاحْمِلْني في حياتي على راحتينِ من عِزَّةٍ وكرامةٍ، ووَفِّرْ لي في مَماتي مكانًا ضئيلاً في صَدرِك.

وحين وقفَ أَوَّلُ عاشِقٍ على أَطلالِ عشيرَتِهِ، بكى واستَبكى واحتارَ بِماذا يُناجي حبيبَتَهُ.. لو كانَ زَهْرَةً لَغَمَرَها أَريجًا، ولو كانَ قَمَرًا لأَلقى عليها حُزمَةً من نورٍ، ولو كان عُصفورًا لَغَرَّدَ لها، ولَبَنى عُشَّهُ بينَ راحَتَيها.. ولكنَّهُ ليس كما تمَنّى.. إِنَّهُ عاشقٌ عاجِز عن بوحِ ما في صَدْرِهِ من كلام.

قالتِ الرّيحُ: ناجِ فتاتَكَ بِلُغةٍ ستكونُ سَيِّدَةَ اللُّغاتِ يومًا، وسينزلُ بها سَيِّدُ الكُتُبِ أَجمعين، وسيتحدَّثُ بها خاتَمُ المُرسَلين.. قالَتِ الصَّحراءُ: ما هذِهِ إِلَّا لُغتُنا العَرَبيَّة، فانفتحَتْ في رأْسِ العاشقِ كُوَّةٌ من نورٍ، ونبتَتْ في قلبِهِ شَجَرَةٌ خضراءُ، وراحَتْ تمْطِرُ في حِضْنِ الحبيبةِ قلائِدَ من شِعْرٍ وياسَمين.

الشِّعْرُ..

الشِّعرُ والحُبُّ تَوأَمان جميلانِ، إذا أَقاما أَقاما معًا، وإذا رَحَلا لا يَرْحَلانِ إلَّا معًا. فإذا حَلّا ضَيفَينِ وكانا مُدلَّلينِ أَطالا الضّيافة، وإذا ما أُسيءَ فهمُهما رَحَلا من دونِ شُكْرٍ أو استئْذان.

الشِّعْرُ والحُبُّ طائِرانِ وَديعانِ لا يُغَرِّدانِ إلَّا إذا حَطَّا على شَجَرَةٍ يانِعَةٍ، ووَقَفا على غُصْنٍ رَطيب. ولنْ يكونَ الشَّاعِرُ شاعِرًا إلَّا إذا كانَ تلكَ الشَّجرةَ، وذلكَ الغُصْنَ الرَّطيب.

الشِّعْرُ هَمْسةُ شاعِرٍ عاشق تَأْتيكَ مَعَ نَسْمَةٍ عابِرَةٍ فَتُشْعِلُ

فيكَ حَرائِقَ لا تُطْفِئُها إِلَّا هَمْسةٌ أَجْمَلُ وأَرَقُّ مِنْها لِتُصْبِحَ غِذاءً لِلْعَقْلِ وشِفاءً لِلْقَلبِ بعدَ سَهَرِ لَيلٍ طَويل.

وقَدْ يكونُ نَظْرَةً مُباغِتَةً منْ غَيداءَ مَرَّتْ بِقُرْبِكَ عَرَضًا، فَكَبَّلَتْكَ بِأَكْبالِها وسِرْتَ هائمًا خَلْفَها فَلا يَسْتَريحُ قَلْباكُما إِلَّا على جَناحِ فَراشَةٍ أَو حَقْلِ سَواسِنَ أَو وَتَرِ قيثارَةٍ أَثْقَلَها الحُبُّ فَراحَتْ تَعْزِفُ لَحْنًا إِنسانِيًّا خَالِدًا.

وقَدْ يَكونُ بَسْمَةَ فَقيرٍ تَسْقُطُ على رَغيفٍ مُحَرَّقٍ فَيَصيرُ وِسامًا مُقَدَّسًا على صُدورِ ثائِرين.

بِدونِ الشِّعْرِ تُصبِحُ الحَياةُ روتينًا مَقيتًا يَعودُ على نَفْسِهِ، ويُصْبِحُ النَّاسُ هَياكِلَ تَنْهَضُ مَعَ كُلِّ شُروقٍ، تَأْكُلُ وتَشْرَبُ وتَعْمَلُ وتَنامُ مَعَ كُلِّ غُروب.

بِدونِ الشِّعْرِ تَتَحَوَّلُ الحُقولُ إِلى مَساحاتٍ كَئِيبَةٍ خَرْساءَ، أَعْشابُها سَقيمَةٌ صَفْراءُ، وأَزاهيرُها عَاقِرَةٌ بِلا أَريجٍ، وعَصافيرُها تَنْتَحِرُ احْتِجاجًا وتَسْقُطُ شَهيدَةَ الحُبِّ والجَمال.

بِدونِ الشِّعْرِ تَتَّشِحُ الغانِياتُ بِالسَّوادِ، وتَنْعَى هَاجَرُ أَحفادَها، ويُعْلِنُ الوَطَنُ العَرَبِيُّ الحِدادَ إِلى أَجَلٍ غَيرِ مُسَمّى.

وإِذا ما اخْتَفَى الشِّعْرُ يَومًا فَسَنَجِدُهُ حَتْمًا على شَفَتَي طِفْلٍ

على صَدْرِ أُمٍّ مَعَ قَطَراتِ حَليب.

الشّاعِرُ..

الشَّاعِرُ إِنْسانٌ وُلِدَ لِيَكونَ شاعِرًا، ولِكَيَ يَكونَ شاعِرًا تَرَكَتْهُ الحَياةُ رُوحًا هائِمَةً لا على الأَرْضِ ولا في السَّماءِ. فإِذا جَذِبَتْهُ الأَرْضُ إِلَيها، عادَ إِلى شَقاءِ أَيَّامِهِ جَرْيًا وَرَاءَ الرَّغيفِ. وإِذا ما شَدَّتْهُ السَّماءُ إِليها، حَلَّقَ في زُرْقَةِ الفَضاءِ عالِقًا بَينَ المُدْرَكِ واللَّا مُدْرَكِ إِلى أَنْ تَأْتيهِ القَصيدَةُ فَيَفْرَحَ فَرَحَ طِفْلٍ بِقِطْعَةِ حَلوى أَو بِرِحْلَةٍ مَدْرَسِيَّة.

الشَّاعِرُ إِنْسانٌ يَنْظُرُ إِلى اللَّا مَرئِيِّ ويُصْغي إِلى اللَّا مَسْموعِ ويَظَلُّ حائِرًا بَينَ قَلْبٍ جُبِلَ من مادَّةٍ سَريعَةِ الاشْتِعالِ وبَينَ

عَقْلٍ يُحاوِلُ عَبَثًا أَنْ يَفْهَمَ كُنْهَ هَذا الوُجودِ، وَعَبَثًا يُحاوِلُ أَنْ يَفْتَحَ ما انْغَلَقَ أَمامَهُ من أَبْوابٍ مُوصَدةٍ في هَذا الكَون. وإذا ما تَوَهَّمَ يَومًا واعْتَقَدَ أَنَّ أَبوابَ الكَونِ قَدِ انْفَتَحَت لَهُ فَسَيجْلِسُ إِلى طاوِلَتِهِ بائسًا يَنْكُتُ الوَرَقَ بِقَلَمٍ يَشكُو مِن فَقْرِ الدَّمِ وَمِنَ احْتِباسٍ في النُّطْق.

لَيسَ الشَّاعِرُ ساحِرًا، ولكِنَّهُ جاءَ من عالَمِ السِّحَرةِ والسَّحْرِ، ولَيسَ نَبِيًّا ولكِنَّهُ صادِقٌ قاطِعٌ كَحَدِّ السِّكِّينِ، ولَيسَ فَيلَسوفًا ولكِنَّهُ سابِحٌ ماهِرٌ في بُحورِ الفِكْرِ، ولَيسَ فَقيهًا ولكِنَّهُ خَبيرٌ بِهَنْدَسَةِ الكَلامِ، ولَيسَ جَنائِنيًّا ولكِنَّهُ أُستاذٌ بِفَنِّ تَنْسيقِ الزُّهور. الشَّاعِرُ يَأْخُذُ مِنَ السَّاحِرِ شَيئًا، ومِنَ النَّبِيِّ شَيئًا، ومِنَ الفَيلَسوفِ شَيئًا ومِنَ الفَقيهِ والجَنائِنِيِّ أَشياءَ وأَشْياء.

قَدْ يَنْخَدِع ُالشَّاعِرُ بِتَصْفيقِ الجَماهيرِ فَيَسيرُ مُخْتالًا كَطاووسٍ فَرَشَ ريشَ ذَيلِهِ المُلَوَّنَ الجَميلَ تَنَفُّجًا وَهْوَ لا يَرى الثَّعْلَبَ المُتَرَبِّصَ خَلْفَهُ.. فَالإِبْداعُ لا يُحِبُّ الضَّجيجَ ولا يَأْنَسُ بِالمنابِرِ الخِطابِيّةِ ولا يَحْتَمِلُ الحُلَلَ الثَّقيلَةَ المُزَرْكَشَةَ، ولا يُطيقُ أَنْ يُرى عارِيًا تمَامًا، يَراهُ النَّاسُ مَرَّةً واحِدَةً ثُمَّ يُشيحونَ بِوُجوهِهِم عَنْهُ.

صِدْقُ الشَّاعِرِ مَعَ نَفْسِهِ الخُطْوَةُ الأُولى على طَريقِ الإِبْداعِ،

وأَمَّا الخُطْوَةُ الثَّانِيَةُ فَهْيَ وَفاؤُهُ لِلْقَصيدَةِ وحُبُّهُ لِلنَّاسِ، بَعْدَها سَيَجِدُ نَفْسَهُ يَسيرُ صُعودًا إلى قِمَّةٍ لا يَصِلُها إلاَّ القِدِّيسونَ والشُّعَراءُ المَجانين.

لَيتَ القَمَرَ طَالِعٌ!

اعْتَقَدَ أَنّ الشَّاعِرَ أَكْثَرُ النَّاسِ شُهْرَةً، فَأَرادَ أَنْ يَصيرَ شاعِرًا. دَخَلَ غُرْفَتَهُ وجَلَسَ إلى الطَّاوِلَةِ؛ أَخَذَ وَرَقًا وقَلَمًا وراحَ يُحدِّقُ في سَقْفِ الغُرْفَةِ ولا يَكْتُبُ شَيئًا.. عاشَ لَحَظاتِ يَأْسٍ، فالأَمْرُ لَيسَ على ما تَصَوَّرَهُ، وأَخذَ الفَشَلُ يَتَسَرَّبُ إلى نَفْسِهِ، ولكِنَّهُ تَخَيَّلَ كَيفَ سَيَكونُ شاعِرًا يُلْقِي الشِّعْرَ من على مِنصَّةٍ عالِيَةٍ فَيَرَى العَجَبَ والإِعْجابَ في عُيونِ المُسْتَمِعينَ تَحْتَهُ، ويَسْمَعُ تَصْفيقَهُم الحادَّ، فَيَنْتَشِي من جَديدٍ ويُحِسُّ أَنَّ ما تَخَيَّلَهُ حَقيقَةٌ. خَرَجَ إلى الشَّارِعِ عَلَّهُ يُصادِفُ ما يُحفِّزُهُ على الكِتابَةِ، ولكِنَّهُ رَأَى أُناسًا يَروحونَ ويَجيؤُونَ كُلٌّ مَشْغولٌ بما فِيهِ، لَاهٍ عن غَيرِهِ بِما عِنْدَهُ. ضاقَ ذَرْعًا بِالنَّاسِ، فَخَرَجَ إلى

الحُقولِ حَيثُ كانَ يُطارِدُ الفَراشاتِ صَغيرًا، ويَقْطِفُ شَقائِقَ النُّعْمانِ بِدونِ رَحْمَةٍ. جَلَسَ في ظِلِّ شَجَرَةٍ ونَظَرَ إلى الأُفُقِ البَعيدِ، ونَظَرَ.. ونَظَرَ.. فَلَمْ يُسْعِفْهُ الجَوُّ القَرَوِيُّ الشَّاعِرِيُّ فَيَتَكَرَّمَ علَيهِ بِبَيتٍ واحِدٍ مِنَ الشِّعْرِ أَو حَتَّى بِقافِيَةٍ. وفَكَّرَ بِالبَحْرِ ولكِنَّ البَحْرَ بَعيدٌ. وفَكَّرَ بِاللَّيلِ، وانْتَظَرَهُ فَجاءَ بِلا قَمَرٍ، فَأَسِفَ كَثيرًا وقالَ: لَيتَ القَمَرَ طالِعٌ!! إِذًا لَكَتَبْتُ أَبْلَغَ قَصيدَةٍ في العِشْقِ والعُشّاقِ، وعلَّمْتُ الشُّعَراءَ كَيفَ يَكونُ الشِّعرُ! وحينَ أَلْقَى بِرَأْسِهِ المُتْعَبِ على الوِسادَةِ أَحَسَّ بِضيقِ تَنَفُّسٍ وبُرودَةٍ تَسْري في عُروقِهِ فَصاحَ: أَينَ رَبَّةُ الشِّعْرِ هَذِهِ الَّتي يَحْكونَ عَنْها؟! ... وإِذا بِصوتٍ مَلائِكيٍّ يَأْتي من لا مَكانٍ يَقولُ لَهُ: أَنَا مَنْ نادَيتَ، كَيفَ يُمكِنُ أَنْ تَكونَ شاعِرًا وقَدْ نَظَرْتَ إِلى كُلِّ شَيءٍ ولمْ تَنْظُرْ إِلى أَعْماقِ ذاتِكَ؟ فيا مَنْ قذفَتْهُ الأَحْلامُ إِلى بَحْرِ الأَوهامِ نَمْ على أَوْهامِكَ، فَلَنْ تَكونَ شاعِرًا. ولكِنَّ الكَرَى لَمْ يَعْرِفْ طَريقَهُ إِلى أَجْفانِه!

جِئْتُكُمْ لِأَمْلأَ بِالبَهْجَةِ صُدورَكُمْ..

لم يَكُنْ صَديقي يومًا، وأَنا لم أَكُنْ لهُ عَدُوًّا يومًا. إِن طَرَقَ بابي استَقْبَلْتُهُ ولكنْ بِلا حَفاوَةٍ زائدةٍ، وَإِنْ رَحَلَ– وسُرْعانَ ما يَرْحَلُ ولا أَدري لِماذا! – كُنْتُ لا أُمْسِكُ بِتَلابيبِهِ لِيَبْقى عِنْدِي، ويُطيلَ زِيارَتَهُ لي. والحَقُّ يُقالُ إنَّ زياراتِهِ، على شُحِّها، كانَتْ مَبْعَثَ سَعادَةٍ لَنا، أَنا وزَوجَتي، لِما تَحْمِلُهُ من تَحْقيقِ بَعْضِ أَمانِيِّنا المُؤَجَّلَةِ شَهْرًا بعدَ شَهْرٍ، وحتَى سَنَةً بعدَ سَنَةٍ!! وقَدْ لا أَكونُ أَفْشَيتُ سِرًّا أَكْنِزُهُ في صَدْري إِنْ قُلْتُ إِنَّني وَبِلَحَظاتِ ضَعْفٍ، كُنْتُ أَتمَنّى قُدومَهُ شَرْطَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ من بابِ بَيتي لا من شَبابيكِهِ، لِإيماني بِأَنَّ الخُطوطَ المُسْتَقيمَةَ أَقصَرُ الخُطوطِ وأَوضَحُها بينَ نُقْطَتَينِ، وأَنَّ

المَتاهَةَ المُظْلِمَةَ لا تُفْضي إلَّا إلى مَتاهَةٍ أَشَدَّ ظَلامًا.

كَمْ تمَنَّيتُ أَنْ يَأْتيَ ذاكَ اليومُ الّذي لَنْ تَجِدَ فيهِ، أَيُّها الصَّديقُ العَدُوُّ، مَنْ يَسْتَقْبِلُكَ إلَّا إذا دَقَقْتَ بابَهُ بِكِلتا يَدَيكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ طهارَةَ يومٍ أَجدى لَكَ من دَنَسِ أَلْفِ يومٍ، وَلِتَتَعَلَّمَ كيفَ تكونُ عَوْنًا لِمُحْتاجيكَ على مَنْ حابَيتَهم فَجَعَلوكَ سُلَّمَ شَرٍّ يَصْعَدونَ عليهِ ويَصْعَدونَ حَتّى بَدَتْ لَهُمُ الأَرضُ كُرَةً يَتَلَهَّوْنَ بِها حينَ يَشاؤُونَ وَحيثُ يُريدونَ وَجَعَلُوا سِحْرَكَ وَسَطْوَتَكَ عَصًا يَهُشُّونَ بِها(قُطْعانَ)البَشَرِ أَمامَهُمْ إلى مَراعيهِم كي تَسْمَنَ، وإلى أَحْواشِهِمْ حَيثُ تَنْتَظِرُ الذَّبْحَ.

رَفَعَ المالُ رَأْسَهُ بَعْدَ أَن تَأَكَّدَ أَنَّهُ المَقْصودُ بِما قُلْتُ، ونَظَرَ إلَيَّ نَظْرَةً فيها مِنَ السُّخْرِيَةِ أَضْعافُ ما فيها مِنَ المَرارَةِ، وقالَ: ما أَفْظَعَ نُكْرانَكُمْ لِلْجَميلِ أَيُّها البَشَرُ! قَدْ جِئْتُكُمْ لِأَمْلأَ بِالبَهْجَةِ صُدورَكُمْ، فَتَهارَشْتُم كَالذِّئابِ الجائِعَةِ حَولي، وأَكَلَ قَوِيُّكُمْ ضَعيفَكُمْ، وَبَعْدَ ذا أَراكُمْ تُقْبِلونَ بِاللّائِمَةِ عَلَيَّ وما أَنا إلاَّ كَمارِدِ مِصباحِ عَلاءِ الدّينِ أُؤْمَرُ فَأُطيعُ.. فَارفَعُوا لائِمَتَكُمْ عَنّي، واقْتَلِعوا الأَعشابَ الضَّارَّةَ من قُلوبِكُمْ ومن حدائِقِ بُيوتِكُمْ لِيَمْتَلِئَ الكونُ عِطْرًا وَمَحَبَّةً.

أَيَّتُها النَّادِباتُ الجَميلاتُ..

تَساءَلْتُ، ومِنْ بابِ العِلْمِ بِالشَّيءِ، مَنْ أَنا؟!

لو كنتُ عَنْدَليبًا لَغرّدْتُ لِلْعابِرينَ المُتعَبينَ فَعَرَفوني وعَرَّفوني قائِلين: هُوَ ذا العَنْدَليبُ يَحَمِلُ عَنَّا بَعْضَ شَقاءٍ مَوروثٍ عن جَدِّنا طَريدِ الفِرْدَوسِ آدمَ. ولو كُنْتُ فَراشَةً أَو وَرْدَةً لَأَلْهَمْتُ شاعِرًا ما بِقَصيدَةِ شِعرٍ يَحْمِلُها إِلى حَسناءَ رَآها عَرَضًا وسَهِرَ ليلَتَهُ يُناجي طَيفَها.. ولو كُنْتُ زَيتونَةً لَوَهَبْتُ النَّاسَ ظِلًّا وزَيتًا وزَيتونًا، وعبّأْتُ قَواريرَ من عَبَقِ بِلادي أَضَعُها بينَ أَيديهم تمَائمَ لِأَحفادٍ سَيولَدونَ. ولكِنِّي إِنْسانٌ، أَو هذا ما اتُّفِقَ عليهِ، خُلِقْتُ لِأَكونَ خيرَ مَخْلوقٍ على هَذهِ الأَرْضِ، فَهَلْ أَنا حَقًّا خيرٌ مِنْ عَنْدَليبٍ أَو فَراشَةٍ أَو زَيتونةٍ أَعطتْ ولم تَأْخذْ ووَفَتْ ولمْ تُنْكِرْ جَميلًا.. وأَنّى لي أَنْ أَكُونَ خَيرَ مَخْلوقٍ ودَمُ أَخِي يَقْطُرُ من أَطرافِ أَصابِعي؟! لَكَأَنِّي وُلِدْتُ لِأَعيثَ في الأَرضِ فَسادًا.. فقد أَجعلُ مِنَ الدَّمامةِ حُسْنًا، ومِنَ الباطِلِ حَقًّا، ومِنَ الظَّلامِ نُورًا حينَ تَجُرُّني بَناتُ أَطْماعِي إِلى جَنازةٍ

أَدفِنُ فيها كَوابِحَ نَفسي لِأَتبعَ رَغَباتِها.. ثُمَّ أَعودُ فَأَقولُ أَنا خَيرُ مَخلوقٍ على هذهِ الأَرضِ!! كلامٌ يَتَوالدُ من كَلامٍ أَو مَتاهَةٌ تَتَوالدُ من مَتاهَةٍ وما أَنا سوى تُرابٍ منه خَرَجْتُ وعليهِ سِرْتُ وإِليهِ أَعودُ. وما بينَ خُروجي منه وعَودَتي إِليه أَراني واقِفًا على كُلِّ مَفْرِقِ دَرْبٍ أَسأَلُ ذاتي مَنْ أَنا؟ مَنْ أَنا؟!

فَيا أَيَّتُها النَّادِباتُ الجَميلاتُ انْدُبْنَ على قَبْري، واحْمِلْنَ سُؤالي لُغْزًا أَبَديًّا أَرْتَهِنُ بِهِ عَبَثِيَّةً تُسَمّى حَياتي.. أَو اجْعَلْنَ مَماتي حَفْلَ زِفافٍ أُبْعَثُ فيهِ أُقْحُوانًا وشَقائِقَ نُعْمان.

أَيُّهَا القَلْبُ...

ما أَنتَ أيُّها القَلْبُ؟! يقولُ الطَّبيبُ الجَرَّاحُ إِنَّكَ عَضَلَةٌ تَضُخُّ دَمي المُؤَكسدَ من جانِبِكَ الأَيسَرِ في جَسَدي لِيَعودَ غَيرَ مُؤَكسَدٍ إِلى جانِبِكَ الأَيمنِ.. ويقولُ الطَّبيبُ الرُّوحانيُّ: ليسَ هذا عملَكَ فقط بل هو أَسمَى من ذلكَ وأَبعدُ.. قلتُ في نفسي: لقد صدقَ الطَّبيبانِ، ولكنْ أَراني كلَّما خَلوتُ إِلى نفسي أَعودُ لِأَسْأَلَ: ما أنتَ أيُّها المُشاغِبُ المُشاكسُ؟! وإِلامَ تظلُّ أَنتَ رُبّانَ سفينَتي وأظلُّ أنا مَلّاحًا أَأتمَرُ بأَمرِكَ؟ وتَدْري أَنَّني واحدٌ على بابِ اللّهِ أَنعمُ بحياتي السّاذَجةِ، وأَحلامي لا تَأْخذُني بعيدًا. فلماذا جعلْتَ سكونَ موانِئي أَنواءً؟ ... لقد جِئْتَني بالحُبِّ فجعلْتَ حياتي نعيمًا ولكنَّكَ قَرَنْتَ به الغَيْرَةَ فأحالَتْها جحيمًا، وجئْتَني بالمحبَّةِ ففتحتُ أَبوابيَ المُوصَدَةَ على ذاتي لِلْغُرباءِ وعابِري السّبيلِ، فقرَنْتَ بها البَغْضاءَ وجَعلْتَني أَرى الجميلَ قبيحًا، والصَّديقَ عَدُوًّا.. وجئْتَني بالتَّسامُحِ فلبِسْتُهُ جِلْدًا فوقَ جِلْدي فقرنْتَ به شَهْوَةَ الانتقامِ، فنزعْتُهُ عن جلِدْي

وشَحَذْتُ سكاكيني. وجِئْتَني بالقَناعةِ فهدأَتْ نَفْسي وطابَتْ بُلَهْنِيَةُ عَيشِي، ولكنَّكَ سُرعانَ ما أَتَيتَني بالطَّمَعِ فأَعماني عَمَّا لَدَيَّ من كاثِرٍ وكثيرٍ، وفتَّحَ عَينَيَّ عمَّا لَدَى غَيري من قُلٍّ وقليلٍ. وجَعَلْتَني أَغْبِطُ النَّاجحينَ حولي وأُبارِكُ نَجاحَهم، فحمَّلْتَني الحسدَ نارًا تأْكلُ أَحشائِي وتَسُدُّ عليَّ مَنافذَ بَهْجَتِي ودروبَ مَسرَّاتي.. وجَعلْتَني.. وجَعلْتَني.. وجعلتَني.... فيا أَيُّها القلبُ المُشاغِبُ المُشاكِسُ! يا صَديقي الوَدودَ ويا عَدُوِّي اللَّدودَ، لِماذا تَزْرَعُ البَسْمَةَ على شَفتَيَّ ثُمَّ تَقْطِفُها، كوردةٍ حَمراءَ ولا تترُكُ لي منها سِوى أَشواكِها؟! لِماذا لا تَتْرُكُ أَبْوابَكَ مَفْتوحَةً على مَصاريعِها وتُنادي بما أُوتيتَ من قُوَّةٍ: أَيُّها النّاسُ تعالَوا.. ادخُلُوا وانْهَلُوا من مَصادِرِ مَحَبَّتي.. فهناكَ مُتَّسَعٌ لِلْجَميعِ.... لِماذا... لِماذا...لِماذا!

أَيُّها الغائِبُ الحاضِرُ!

مِنَ البديهِيّاتِ أَنْ تَطْرُقَ البابَ قبلَ دُخولِكَ يا مَنْ يَدْخُلُ فَلا يَطْرُقُ بابًا.. تَدْخُلُ حينَ تَشاءُ وكيفَ تَشاءُ ولا تَخْرجُ إِلّا إِذا قَضيتَ وَطَرًا، ولَيتَكَ تَدخُلُ هاشّاً باشًّا فَتُدخِلَ في النّفوسِ القَلِقَةِ شَيئًا من سَكينَةٍ وفي القُلوبِ الرّاعِدَةِ بَعْضًا من أَمانٍ.. ولكنَّكَ تَأْتينا عابِسًا يابِسًا لِتَجْعَلَ أَيّامَنا كَدَرًا، ولَيالينا أَرَقًا. ولَشَدَّ ما يُثيرُ استِهجاني أَنَّكَ تَأْتينا على غيرِ ميعادٍ فَنَرضى بِكَ ضَيفًا غاصِبًا، ونَرْضَى بِأَنْفُسِنا مُضيفينَ مُغتَصَبينَ.. وحينَ تَضيقُ بِالهَمِّ صُدورُنا وتَقْسو علينا ذَواتُنا نَدعوكَ فلا تُلبّي دُعاءَنا، وتَرْمينا بِنَظَراتٍ نِصْفُها شَماتَةٌ ونِصْفُها مَهانَةٌ، كَأَنَّكَ تقولُ لنا: سَأَتْرُكُكُمْ لِيأسِكم وضَعْفِكُمْ، فإِنْ قَويتُمْ صِرْتُمْ طَرائِدَ أَقْنِصُها مَتَى أُريدُ. وقد تُغَيِّبُكَ الذّاكِرةُ في ثَنايا هَمِّنا اليومِيِّ فَنَنْسَى - ولو إِلى حينٍ - أَنَّنا الطَّرائِدُ وأَنَّكَ أَنتَ قَانِصُها، فَتَسُدُّ عَلينا دُروبَ الحَياةِ وفِجاجِها وتَأْتينا مَادًّا ذِراعَيكَ الفُولاذِيَّتَينِ لِتأْخُذَنا طَريدَةً بعدَ طَريدَةٍ تارِكًا

وراءَك قُلوبًا تَتَمَرَّغُ في رَمادِ لَوعَتِها.. لن أَنْسَى.. بَلْ كيفَ لي أَنْ أَنْسَى وقد جِئْتَني ذاتَ نَهارٍ تَمُّوزِيٍّ لِتَضُمَّني إلى قَطيعٍ من قُطْعانِكَ... ولِأَمْرٍ مَا تَرَكْتَني وانْطَلَقْتَ هارِبًا! كيفَ؟ وأَنا العاجِزُ عن عِصْيانِكَ، الحائِرُ ما بينَ غِيابِكَ وحُضورِكَ، والعارِفُ أَنَّكَ إِنْ كُنْتَ تارِكِي لِيَومِي فَلَنْ تَكونَ تارِكًا إِيَّايَ لِغَدي.

فيا أَيُّها الموتُ.. أَيُّها الغائِبُ الحاضِرُ، يَقولونَ إِنَّكَ حَقٌّ، فَرَضيتُ بِكَ حَقًّا مَكْروهًا وأَعْدَدْتُ نَفْسِي لِأُنازِلَكَ أَنىَّ شِئْتَ، ومَتى شِئْت.. فَرَوِّضْ أَنْتَ نَفْسِكَ على أَنَّكَ لَنْ تَراني رافِعًا رايَةً بَيضاءَ تُعْلِنُ لَكَ هَزيمَتِي وانْدِحاري.. لا.. لَنْ تَقْدِرَ على هَزيمَتِي ما دامَ يَراعِي يَنْزِفُ حُبًّا ويَصْنَعُ كَرامَةً!

جالِسوهُمْ!

يُحْكَى أَنَّ كِسرى أَنو شِروانَ ملكَ فارس مَرَّ بِشَيخٍ يغرسُ زَيتوناً فقالَ: أَيُّها الشَّيخُ ليسَ هذا أَوانُ غَرْسِكَ الزَّيتونَ لِأَنَّهُ بَطيءُ النَّماءِ والإِثْمار، وأَنتَ شَيخٌ هَرِم! فقالَ الشَّيخُ: أَيُّها المَلِكُ قدْ غَرَسَ مَنْ قَبْلَنا فَأَكَلْنا ونَغْرِسُ نَحْنُ لِيَأْكُلَ مَنْ بَعْدَنا. فقالَ كِسْرى: زِهْ. وهي كَلِمَةُ اسْتِحْسانٍ إِذا قالَها المَلِكُ لِإِنْسانٍ أُجيز بِجائِزِهِ. فقالَ الشَّيخُ: أَيُّها المَلِكُ كيفَ رَأَيتَ غَرْسِي؟ فما أَسْرَعَ ما أَثْمَرَ! فقالَ المَلِكُ: زِهْ! ثانِيَةً، فَأُجيزَ الشَّيخُ ثانِيَةً. فقالَ الشَّيخُ: أَيُّها المَلِكُ كُلُّ شَجَرَةٍ تُثْمِرُ في العَامِ مَرَّةً وشَجَرِي أَثْمَرَ في لَحْظةٍ مَرَّتَينِ! فقالَ المَلِكُ: زِهْ! مَرَّةً ثَالِثَةً، فَأُجِيزَ الشَّيخُ ثَالِثَةً. ثُمَّ مَضَى كِسْرى قائِلاً لِحاشِيَتِهِ: انْصَرِفُوا، فَلَئِنْ وَقَفْنا لم يَكْفِ الشَّيخَ ما في خَزائِنِنا. (القِراءَةُ الرَّشيدَةُ)

حِوارِيَّةٌ طَرِيفَةٌ بينَ شَيخٍ فَلَّاحٍ فقير وبينَ مَلِكٍ جَبَّارٍ قَديرٍ.. قَرَأْناها دونَ أَنْ نُكَلِّفَ أَنْفُسَنا عَناءَ الإِجابَةِ عنْ سُؤَالٍ واحِدٍ: مَنْ عَلَّمَ هذا الفَلَّاحَ الشَّيخَ حُسْنَ الكَلامِ وسُرْعَةَ البَداهَةِ؟ وبِدونِ كَثيرِ شَرْحٍ: إِنَّها الحَياةُ.. الحَياةُ بِتَجارِبِها صُعودًا وهُبوطًا على مَرِّ الأَيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ.. إِنَّها مَدْرَسَةُ

الحَياةِ المُطِلَّةُ عَلَينا مِنْ وُجُوهٍ مُغَضَّنَةٍ، ومَنِ عُيونٍ رَأَتْ وآذانٍ سَمِعَتْ وصُدورٍ حَفِظَتْ.. كَمْ كانَ يَلَذُّ لي أَنْ أَجْلِسَ وأَسْتَمِعَ- ولا أَزالُ- إِلى صَوتِ الزَّمَنِ الآتي مِنْ بينِ شَفَتَيّ الشَّيخِ الَّذي أُجالِسُهُ بما يَحْمِلُ مِنْ (كَمٍّ) هَائِلٍ غَرْبَلَتْهُ الأَيَّامُ فَأَصْبَحَ (كَيفًا) مُعْتَصَرًا مِنْ رَبيعِ إِنسانٍ وصَيفِهِ وخَريفِهِ وشِتائِهِ.. مُكوِّنًا عِلْمًا يُماشِي ما نَعْرِفُهُ مِنْ عُلوم.

فَلْنُجالِسْ شُيوخَنا، ولْنأخذْ عَنهُم خِبْرَةَ الحَياةِ وفُنونَها.. وقد يَعْتَبِرُهُ البَعْضُ ـ وأَنا مِنْهُم ـ نِداءً وَطَنِيًّا يَجْمَعُ شَتاتَ أُمّةٍ نَكَبَها الدَّهْر..

يا أَخي مِنْ آدمَ وحَوّاء..

هُمْ يقولونَ لكَ: اقرأْ

وأَمَّا أَنا – وبَعيدًا عن دَهَشَةِ الكَثيرينَ – أَقولُ لَكَ: لا تَقْرَأْ!!

هُمْ يَقولونَ لَكَ اقْرَأْ لِتَزْدادَ عِلْمًا ومَعْرِفَةً ووَعْيًا، ولِتَكونَ لِبْنةً صُلبةً في بِناءِ مُجْتَمَعٍ حَضارِيٍّ ولا أَقَلَّ مِنْ حَضارِيٍّ. وأَنا أَقولُ لَكَ لا تَقْرَأْ لِتَقْضِي عُمْرَكَ، وما أَقْصَرَهُ!، بَليدًا خامِلًا جاهِلًا، وقد ذَلَّ مَنْ ظَلَّ على جَهْلِهِ في زَمَنٍ باتَ الجَهْلُ فيهِ سُبَّةً وأَضحَتْ البَلادَةُ فيه جِنايَةً بِحَقِّ الفَرْدِ والجَماعَةِ والوَطَن. هُمْ يَقولونَ لَكَ وبِمَحَبّةٍ غامِرَةٍ: اقرأْ لِتَعْرِفَ طَريقَ الهُدى فَتُفَرّقَ ما بَينَ حَقٍّ وباطِلٍ، وما بَينَ مَظْلومٍ وظَالِمٍ ولِتَنْحازَ- رُبمَّا – إِلى مُعَسْكَرِ الذَّينَ يَبْنونَ ولَيسَ يَهْدِمونَ. وأَقولُ لَكَ، ويُوجِعُنِي القَولُ: لا تَجْعَلْ مِنَ القِراءَةِ عادَةً.. فَهِيَ عادَةٌ تُنَمِّي فيكَ النَّباهَةَ والحَصافَةَ وتَبْني لكَ مَجْدًا وكَرامَةً، وتَنْتَشِلُكَ من مَفْسَدَةِ فَراغِكَ وأَنتَ إِلى الكَسَلِ أَمْيَلُ وإِلى اللَّهوِ أَرْغَبُ. وظَنِّي أَنَّ مُجالَسَةَ النَّارْجيلةِ أَو مُقاذَفَةَ النَّرْدِ لِساعاتٍ أَحبُّ إِلى قَلْبِكَ أَلفَ مَرَّةٍ مِنْ مُجَالَسَةِ أَبِي عُثْمانَ عمروِ بن بحر أَو طه حُسَين... والمَكْتَبَةُ العَرَبِيَّةُ زاخِرَةٌ.

رُبَّ قائِلٍ يَقولُ: كَفاكَ تَعْريضًا وسُخْرِيَةً! ومَا الحَرَجُ في ذَلِكَ وعِندَنا الوقتُ لِهَذِهِ وتِلْكَ؟! أَقولُ: كلُّ الحَرَجِ، وهَلْ تَكْتَمِلُ المَعْرِفَةُ إلَّا بِالهِواياتِ، وما أَكْثَرَها، كَالرَّسْمِ والنَّحْتِ والموسيقَى والتَّمثيلِ والرِّياضَةِ خاصَّةً الرِّياضَةَ في زَمَنِ الضَّغْطِ العالِي والكولِسْترولِ وتَصَلُّبِ الشَّرايينِ والسِّمْنَةِ الزَّائِدة. على كلٍّ، إنَّما هوَ رَأْيٌ شَخْصِيٌّ وقدْ يُثيرُ جَدَلًا أَو قدْ يمُرُّ دونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إليهِ أَحَدٌ، ولكِنَّهُ عِنْدِي، يَظَلُّ رَأْيًا أَتَمَسَّكُ بِهِ تمَسُّكَ مَنْ يُجالِدُ مِنْ أَجْلِ قَضِيَّةٍ عادِلَة.

أَسْمَعُها..

إنيّ أَسْمَعُها صَرْخَةَ جَوعَى مَظلومينَ

فأَضْحَكُ حُزْنًا

أو أبكي فَرَحًا لا أَدْري!!

يا وَطَنِي المُمْتَدَّ مِنَ الماءِ إلى الماءِ إلى قَلْبِي

جَرِّعْني الفَرْحَةَ مِلعقةً ملعقةً

أَخْشَى أَنْ تَقْتُلَنِي الجَرْعَةُ إنْ زادَتْ فَوقَ الحَدّْ.

واعْذِرْني يا شَعْبِي العَرَبِيَّ،

إذا أَنْكَرْتُكَ - في ساعَةِ يَأْسٍ -

أَنْكَرْتُكَ قَبْلَ صِياحِ الدِّيكِ

نَسيتُ بِأَنَّ الجَزْرَ - ولو طالَ - سَيَعْقُبُهُ المَدّْ.

قَدْ سَدَّ عَلَيَّ الفِرّْيسيِّونَ جَميعَ الطُّرُقاتِ

تَنادَوا كَيَ أُصْلَبَ فَوقَ صَليبِ القَهْرِ

صُلِبْتُ..

ومَدُّوا عِنْدَ صَليبِي مائِدَةً

مَزَجُوا خَمْرَتَهُمْ بِدِمائي

شَرِبوها أَكْؤُسَ عُهْرْ

نَسِيَ الفِرِّيسِيُّون بِأَنَّ أَشَدَّ السّاعاتِ ظَلامًا

ساعَةَ ما قَبْلِ الفَجْرْ.

مُدِّي يا كُومونَةَ مِصْرَ وتونِسَ أَذْرُعَكِ الصَّلْدَةَ

مُدِّيها كَيَ تَكْنِسَ زَبَدَ الماءِ

وتَنْشُلَ لؤْلؤَها مِنْ أَعماقِ البَحْرْ.

قَدْ آنَ رَحيلُ الدِّيناصوراتِ لِكَيَ يَنْبُتَ عُشْبٌ

ويُفتِّحَ أَجْمَلُ زَهْرْ.

قَدْ آنَ لِهاجرَ أَنْ تُطْلِقَ زَغْرودَتَها

في أَعْراسِ بَنيها زَغْرودَةَ نَصْرْ.

حديث قرية.. (2)

عُذْرًا يا مَنْ كَتبْتُ لَهُم فأَحَبُّوا ما كَتَبْتُ وجَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ نَبْعًا ثَرًّا أَنْهَلُ مِنْهُ فَتَنْتَشِي أَماليدُ رُوحي ويَسْتَيقِظُ قَلَمِي في يَدِي فَأَكْتُبُ غَيرَ خائفٍ مِنَ السُّقوطِ في رُوتينيّةٍ تُفْقِدُ الكَلِمَةَ بَريقَها والمَعاني حَداثيّتَها. وإِنْ كُنْتُ أُعاوِدُ الكِتابَةَ عَنْ قَرْيَتِي فَهْوَ مِنْ بابِ الوَفاءِ لِأُناسٍ حَمَلُوا جِراحاتِ الوَطَنِ رَايةً وراحُوا يُلَمْلِمُونَ أَشْتاتَ شَعْبٍ فَرَّقَتْهُ العاصِفَة. قالوا: ومِنَ الحُبِّ ما قَتَل.. وأَقولُ: ومِنَ الحُبِّ ما يُحْيي أَيضًا. حُبُّنا لِقُرانا أَنْبَتَ لَنا جُذورًا ضَرَبَتْ في الأَرضِ عَميقًا عَميقًا، وأَرْضَعَتْنا مِنْ نُسْغِها حَلاوَةَ البَقاءِ.. سَأَلْتُ: لِماذا يُحِبُّ النَّاسُ هُنا بَعْضَهم؟! فَقِيلَ لي: لِأَنَّهُم أَدْرَكُوا باكِرًا أَنَّ المَحَبَّةَ وَحْدَةٌ، وفي الوَحْدَةِ قُوَّة. ولِلْحَقيقَةِ أَقولُ: لَيسَتْ قَرْيَتِي مَدينَةً فاضِلةً ولَكِنَّها قَرْيَةٌ كَثُرَ فيها عُقَلاؤُها وأَطاعَ شَبابُها شُيوخَها. فَإِذا ثارَتِ النُّفوسُ وحَمِيَتِ الرُّؤُوسُ فَسَتَجِدُ مَنْ يَصُبُّ ماءً بارِدًا عَلَيها فَيُطْفِئُ نارَها..

يَحْكونَ أَنَّهُ عِنْدَما ارتفعَتْ أَوَّلُ رَايةٍ حَمْراءَ في القَرْيَةِ رَفَعَتْ الفِتْنَةُ الرَّقْطاءُ رَأْسَها. والنَّارُ الَّتي أَكَلَتْ تِلْكَ الرَّايةَ تَحَوَّلَتْ

إلى شُعْلةٍ مَجوسيّةٍ لا تَنْطَفِئُ نارُها. وإذا كانَتْ وَحْدَةُ الأَهالي قَدْ تَصَدَّتْ لِأَحْكامِ الإعْدامِ في أَخْطَرِ الظُّرُوفِ وأَضْيَقِها، فَإِنَّ خِطابَ القائِدِ الشُّيوعِي الرَّائِدِ طَيِّبِ الذِّكْرِ جمال موسى قَدْ كَسَرَ قُمْقُمَ الخَوفِ لِيَخْرُجَ مارِدُ سُلَيمانَ حُرًا طَلِيقًا.. جاءَ إلى القَرْيَةِ لِإِحْياءِ اجْتِماعٍ شَعْبِيٍّ في السَّاحَةِ العامَّةِ فَلَمْ يَجِدْ غَيرَ بَعْضِ الرِّفاقِ وأَفْرادٍ مِنَ الشُّرْطَةِ في انْتِظارِهِ وقَدْ عَلَتْ وُجوهَهُم رَقاعَةٌ وشِفاهَهُم ابْتِساماتُ شَماتَةٍ لِعَدَمِ حُضورِ النَّاسِ. فَما كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنِ اتّجَهَ صَوبَ التُّوتَةِ المُنْتَصِبَةِ كَحارِسٍ أَبَدِيٍّ لِعَينِ البُقَيْعَةِ وساحَتِها العامَّةِ وقالَ: السَّلامُ عَلَيكِ أَيَّتُها الشَّجَرَةُ المُبارَكَةُ، انْقُلي عَنِّي لِلْأَجْيالِ ما سَأَتْلُوهُ عَلَيكِ.. وراحَ يُعَدِّدُ مَظالِمَ السُّلْطَةِ المُمَثَّلَةِ بِحاكِمِها العَسْكَرِيِّ...وقَليلًا قَليلًا بَدَأَ النَّاسُ يَتَوافَدونَ غَيرَ مُبالِينَ بِرِجالِ الشُّرْطَةِ الَّذينَ فَقَدُوا هِيبَتَهم... وتَمُرُّ الأَيَّامُ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ بَقاءَ الحالِ مِنَ المُحالِ، لكِنَّ خِطابَ الرَّفيقِ جَمال ما زالَ قَلائِدَ مِنْ نُورٍ عُلِّقَتْ عَلَى أَغْصانِ التُّوتَةِ الَّتي بَدَتْ كَشَجَرَةِ عيدِ الميلادِ خَالِدَةً بِما أُعْطِيَتْ مِنْ بَهاءٍ ومِنْ مَهابَةٍ.

مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَحِقُّ...

رُبَّ قارِئٍ مَلولٍ يَقولُ: أُفٍّ ثُمَّ أُفٍّ يا حُسَين! أَلا يَكْفِي ما كَتَبْتَهُ عن بُقَيعَتِكَ حتَّى الآن؟ لَقَدْ حَفِظْنا الدَّرْسَ فَهاتِ دَرسًا جَديدًا! لِهذا القارِئِ العَزيزِ المُحِبِّ - طَبْعًا -أَقولُ: إِنَّ حُبِّي لِبُقَيعتي / وَطَنِي الأَصْغَرِ هو حُبِّي لِفِلَسطيني/ وَطَني الأَكْبَرِ.. ومَنْ أَحَبَّ قَريَتَهُ أَحَبَّ وَطَنَهُ، تمَامًا كالَّذي عَرَفَتِ المَحَبَّةُ طَريقَها إِلى قَلْبِهِ، فَأَحَبَّ نَفْسَهُ، وأَحَبَّ حَبيبَتَهُ، وأَحَبَّ النّاسَ جميعًا.

تَعَلُّقي بِقريَتي هو تَعَلُّقُ ابنِ القَبيلَةِ المُسْتَضْعَفَةِ الخائِفِ عَلى حَبيبَتِهِ مِنَ السَّبْي.. أَلا يَكْفينا ما فَقَدْنا من قُرانا / سَبايانا الَّتي جَارَ عَليها الغُزاةُ، فَلا نَحْنُ حَرَّرْناها من ظُلْمَةِ لَيلِها، ولا الغُزاةُ صانوا لَها عَفافَها!

كَيفَ أَمَلُّ الكِتابَةَ عَنْ قَرْيَتِي السَّاحِرةِ بِبَساتينِها وكُرومِ زَيتونِها ولَوزِها وتينِها، الغَنِيَّةِ بِعُيونِ مائِها.. فَهُناكَ عينُ البَلَدِ والعَينُ البرَّانيَّةُ وعينُ طيريا وعينُ الجِنانِ وعينُ البُستانِ وعينُ الجُبِّ وعينُ الوَرْقاءِ وعينُ الجَمَلِ وعينُ العَسَلِ. أَلا تَسْتَحقُّ أَنْ أَكونَ لَها عاشِقاً، وعلى بابِ مِحْرابِها سادِنًا؟!

وكيفَ لا أَكتُبُ عن قريةٍ عَمَّدَتْ أَهلَها بِماءِ المَحَبَّةِ وصَهَرَتْهُم بِأَتّونِ التَّسامُحِ والوفاءِ؟! كانَ بيتُ صديقي ورَفيقي الرَّاحلِ يوسف سلمان سويد أَشْبَهَ بِنادٍ ثَقافيٍّ لَيْلِيٍّ.. يجمعُنا لِمُناقَشَةِ كِتابٍ، أَو لِلاسْتِماعِ إِلى مَعزوفَةٍ مُوسيقيَّةٍ، أَو لِاحْتفالٍ مُتَواضِعٍ بِرافِضِ خِدْمَةٍ في جَيشِ الاحتِلالِ انْتَزَعَ إِعفاءَهُ منَ الخِدْمَةِ بَعْدَ طولِ سَجْنٍ واعْتِقالٍ. واسمَحوا لي أَنْ أَرفَعَ رَأْسِي عالِيًا بِقريَةٍ كقَريَتي لا تَستَطيعُ - إِنْ زُرْتَها -أَنْ تُمَيِّزَ بَينَ أَحْمَدَ وعيسى وسَلْمان.. لَهْفي عَلى أَحِبَّاءَ رَحَلُوا بَعْدَ أَن تَرَكُوا مَشْروعَنا الإِنْسانيَّ الَّذي بَدَأْناهُ مَعًا أَمانَةً بَينَ أَيدينا.... سَلامٌ عَلى الكَاتِبِ يوسف سلمان سويد والشَّاعِرِ سميح صبَّاغ والكاتِبِ سلمان يوسف بكريِّة والشّاعرِ سلمان أسعد فضّول والشّاعرِ أَحمد أَسعد فَضّول.. سَلامٌ عَلى ذاكَ الفتى الجَميلِ الَّذي رَحَلَ مَسْكونًا بالشِّعرِ والموسيقى وحُبِّ سُحْماتا حَميد العرب.. سَلامٌ عَلى صَديقِ الكُتُبِ والمَكْتَباتِ نسيب صالح سعيدة.. ولا أَنْسى الفَتى الَّذي لا يُنْسى لِحَلاوَةِ روحِهِ وخِفَّةِ ظِلِّهِ مُوسى جبرائيل حاجّ. وأَمَدَّ اللّهُ في أَعْمارِ الأَحِبَّاءِ الأَحياءِ الَّذينَ فَرَّقَهم مِضْرَبُ الحَياةِ، ولكِنَّهم سُرعانَ ما يَجْتَمِعونَ إِذا جَدَّ الجِدُّ لِنُصرةِ مظلومٍ، أَو لِإحقاقِ حَقٍّ.

هَذهِ هي قَريَتي.. هذهِ هي بُقَيعَتي.. فَما أَقَلَّ ما كَتَبْتُ عَنْها، ومَا أَكْثَرَ ما تَسْتَحِقُ.

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ...

كَثيراً ما استوقَفَتْني رائِعةُ الشَّاعرِ العَرَبيِّ الاسْتِثْنائيِّ المُتَنَبِّي (واحَرَّ قَلْباهُ) والَّتي ظَلَموها كَثيراً حينَ اعْتَبَروها قَصيدَةَ عِتابٍ يُعاتِبُ فيها الشَّاعِرُ الأَميرَ، ناسينَ أَو مُتَناسينَ أَنَّ المُتنبّي نظمَ هَذهِ القَصيدةَ وقد سَبَقَ قَلبُهُ عَقْلَهُ، فَحَشَّدَ لَها جَميعَ أَحاسيسِهِ مِنْ حُبٍّ وعَتْبٍ وغَضَبٍ وشاعِريَّةٍ.

دَوافِعُ هذهِ القَصيدةِ مَعْروفةٌ، أَقْساها عَلى النَّفسِ الحُرَّةِ الأَبيَّةِ حَسَدُ الحاسِدينَ، وأَوجَعُها أَنْ يُصغِي الأَميرُ الأَديبُ الفَارِسُ سَيفُ الدّولةِ إِلى ما قالَهُ هَؤُلاءِ، فَيَميلَ قَلبُهُ عَنْ شاعِرٍ أَخْلَصَ لهُ الوُدَّ وَصَدَقَهُ في مَدْحِهِ لهُ. لا بَلْ وصَلَتْ بِهِما هَذهِ المَحَبَّةُ إِلى وَعْدٍ قَطَعَهُ سَيفُ الدَّولةِ عَلى نَفْسِهِ بِأَنْ يُزَوِّجَهُ أُخْتَهُ خَوْلَة، ولَكِنَّهُ لَمْ يَفِ بِوَعْدِهِ لِرَفْضِ بَنِي حَمْدان هَذهِ المُصاهَرةَ، حَتَّى أَنَّ المُتنبّي قد نَجَا بِأُعْجوبَةٍ مِنْ مُحاولَةِ اغْتِيالٍ دَبَّرَها لَهُ أَبو العَشائِرِ ابنُ عَمِّ سَيفِ الدَّولَةِ.

يَميلُ الاعْتقادُ عِنْدَ بَعضِ المُهتمِّينَ بِشِعْرِ المُتَنَبِّي أَنَّ هَذهِ القَصيدَةَ هي تَنفيسُ بُرْكانِ غَضَبٍ، وزَفْرَةُ شاعِرٍ مُحِبٍّ لا يَستطيعُ البوْحَ بِحُبِّهِ.. هَذا الحُبُّ العَفيفُ الَّذي جَمَعَ بَينَ

رُوحَينِ، رُوحِ المُتَنَبِّي ورُوحِ خَوْلَة الَّتي إِنْ ذَكَرَها في شِعْرِهِ اسْتَعاضَ عَنْ ذِكْرِ اسْمِها بِقَولِهِ (فَعْلَة). وتَظَلُّ التَّعابيرُ (واحَرَّ قَلْباهُ) و(ومَنْ بِجِسمِي وحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ) و(مالي أُكَتِّمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي) و(كُلُّ شَيءٍ بَعْدَكُم عَدَمُ) أَقْرَبَ إِلى الغَزَلِ مِنْها إِلى العِتابِ.

وكَأنِّي بِهِ عِنْدَما قالَ:

إِذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَومٍ وقَدْ قَدَرُوا

أَنْ لا نُفارِقَهم فَالرَّاحِلونَ هُمُ

يُناشِدُ خَولةَ أَنْ تَفْعلَ شَيئًا يُبْرِئُ لَهُ كَرامَتَهُ الجَريحَةَ فَلا يَرْحَلُ وهْوَ القائِلُ: (شَرُّ البِلادِ مَكانٌ لا صَديقَ بِهِ). رَحَلَ الشَّاعِرُ رَحيلَ وامِقٍ لا رَحيلَ مُفَارِقٍ.. وهَذا شَأْنُ الرِّجالِ العِظامِ.

قُوَّتُنَا مِنْ قُوَّتِهَا..

لِقاءَاتُنا الأُولىَ كانَتْ بِمُنتَهى السِّرِّيَّة.. فَأَنا كَمُعلِّمٍ، يَومَها، مَحْظورٌ عَليَّ لِقاؤُها أَو حَتَّى الاقْتِرابُ مِنْها.. فَمِهْنَةُ التَّدْريسِ عِنْدِي لَمْ تَكُنْ ضَمانًا لِرَغيفِ الخُبْزِ فَقَطْ بَلْ رَغْبَةً مِنِّي في العَطاءِ لِطُلَّابٍ أَحْبَبْتُهُم فَبادَلوني حُبًّا بِحُبٍّ.

واسْتَمَرَّتْ لِقاءاتُنا السِّرِّيَّةُ رَغْمَ عَينِ الرَّقيبِ الَّتي لا تَغْفُو ولا تَغْفِرُ.. فَكُنْتُ أَلْتَقيها مَرَّتَينِ في الأُسْبوعِ.. مَرَّةً تَفْتَحُ لِي ما اسْتَغلَقَ عَلى مَدارِكي الفَجَّةِ، ومَرَّةً تَنْثُرُ حَولِي ما طَابَ لَها مِنْ شِعْرٍ ومِنْ جَميلِ نَثْرٍ.. وفي اللِّقاءَينِ كانَتْ تَقْتَلِعُ الأَحْساكَ مِنْ حَدائِقي وتَزْرَعُ الحُبَّ والأَمَلَ في نَفْسِي حتَّى أَصْبَحْتُ مِثْلَها ثائِرًا عَلى الظُّلْمِ حَيثُما كانَ مُنْتَصِرًا لِلْعَدْلِ حَيْثُما كانَ.

وتَدورُ الأَرْضُ دَورَتَها الأَزَلِيَّةَ، فَيَتَعاقَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ لَتَقودَني الأَيَّامُ مِنْ صَعْبِها إِلى أَصْعَبِها.. ولَكِنْ بِفَضْلِها وهَدْيِها صَلُبَ عُودِي فَفَقَأْتُ عَيْنَ الرَّقيبِ وأَصْبَحَتْ لِقاءَاتُنا يَومِيَّةً وجِهارًا، هِيَ تَنْتَزِعُ مِنِّي ضَعْفِي وَحَيْرَتِي وأَنا أَكْتَسِبُ مِنْ قُوَّتِها قُوَّةً.

أَعْتَرِفُ الآنَ بِأَنَّ الجَفْوَةَ الَّتي كَانَتْ بَينَنَا لَمْ تَتْرُكْ في قَلْبَيْنا نُدوبًا.. فَأَنا لَمْ أُنَقِّلْ فُؤادِي كَمَا شَاءَ حَبيبُ بنُ أَوسٍ الطَّائيُّ وظَلَّتْ هِيَ الحَبيبَ الأَوَّل.. وظَلَّتْ هِيَ البَيْدَرَ الواسِعَ لِي ولِلْنّاسِ جَميعًا.

وأَجْزِمُ أَنَّ الَّتي أَخَذَتْ بِيَدِي صَغيرًا لا تُضَيِّعُني كَبيرًا.. فَيَا جَريدَةَ (يا عُمّالَ العَالمِ اتَّحِدُوا) سَتَظَلّينَ البُوصَلَةَ في بَحْرِ الحَياةِ الهائِجِ، وبِكِ ومَعَكِ نَصِلُ دائِمًا إِلى بَرِّ الأَمانِ.

أَريجُ الذَّاكِرَة...

كَانَ والِدي صَاحِبَ حَانوتٍ صَغيرٍ لا يُشْبِعُ ولا يُغْني من جُوعٍ، وهْوَ إِلى المَضافَةِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلى مَصْدَرِ رِزْقٍ. وكَثيرًا ما كانَ يَتْرُكُني وَحْدي أَتَدَبَّرُ أَمْرَ الحَانوتِ، رَغْمَ حَداثَةِ سِنّي الَّتي لَمْ تَكُنْ تَزيدُ عَلى عَشْرِ سَنَواتٍ.

كَانَ حَجْزُ والِدي لِطُفولَتي التَّوّاقَةِ إِلى الحَرَكَةِ واللَّعِبِ يُضايِقُني إِلى حَدِّ البُكاءِ أَحيانًا.. وما كَانَ يُسَرِّي عن نَفْسِي هوَ حُضورُ أَصْدِقاءِ والِدي مِنَ الشُّيوخِ الَّذينَ اعْتادُوا الجُلوسَ أَمامَ الحَانوتِ سَواءٌ أَكانَ والِدي حاضِرًا أَمْ غائبًا. وتَأْتي القَعْدَةُ بَعْدَ القَعْدَةِ لِيُصْبِحوا أَصْدِقائي أَنا أَيضًا.. وَهَا أَنَذا اليَومَ وأَنا على جَادَّةِ الشَّيخوخَةِ أَعْتَرِفُ بِأَنّي قَدْ وَجَدْتُ، يَومَها، مِنَ المَعْرِفَةِ والمُتْعَةِ ما لَمْ وَلَنْ يَكونَ موجودًا في مَناهِجِ الدِّراسَةِ. كَمْ كُنْتُ أَعْجَبُ لِهَؤُلاءِ الشُّيوخِ الَّذينَ لَمْ يَدْخُلوا مَدْرَسَةً يَومًا، وهُمْ يَتَحَدَّثونَ في شَتَّى المَواضِيعِ بِفِطْرِيَّةٍ مُدْهِشَةٍ، وقَدْ أَخَذُوا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ نَصيبٍ.

لَيسَ بِمَقْدوري هُنا أَن أَكتُبَ كُلَّ ما عَلِقَ في الذَّاكِرةِ من أَحاديثَ لِكَثْرَتِها، ولكنْ بِاسْتِطاعَتي أَن أَكتَفي مِنَ الزَّهْرَةِ

بِأريجِها.. فَمِنْ أَحاديثِهِمْ تَعَرَّفْتُ على أَحْمَد باشا الجَزَّارِ بَانيِ ما هَدَّمَتهُ الأَيَّامُ والحُروبُ من سُورِ عَكَّا، والَّذي كَانَ ظالِمًا يَأمُرُ رِجالَهُ بِوَضْعِ عُمَّالِ السُّخْرةِ المَوتىَ جُوعًا وعَطَشًا وَتَعَبًا في الرَّكَّةِ بِلا صَلاةٍ أَو شَاهِدَةِ قَبْرٍ. وَيَنْتَصِرُ أَحَدُهُمْ لَهُ فَيَقولُ: ولَكِنَّهُ قَهَرَ سَرَّاقَ الطَّاساتِ ورَدَّهُ إِلى بِلادِهِ ذَليلًا. وما سَرَّاقُ الطَّاساتِ هَذا سِوى نابليون بونابرت وقَدْ حَاصَرَ عَكَّا شُهورًا، واسْتَعْصَى عَليهِ فَتْحُها فَدَخَلَها خُلْسَةً وسَرَقَ طَاسَةَ بِئْرِ الجَامِعِ وأَخَذَها تِذْكارًا واللّهُ أَعلَمُ! وتَعَرَّفْتُ كَذلِكَ، فيما تَعَرَّفْتُ، عَلى سْتالين ذِي الشَّارِبَينِ (الدُّرْزِيَّينِ) وكَيفَ فَتَلَ شَارِبَهُ وهَجَمَ عَلى (هِتْلِر) وكَوَّعَهُ. وكَثيرًا ما سَمِعْتُهُم يَتَحَدَّثونَ عن بَريطانيا وَظُلْمِها والمَنْدوبِ السَّاميِّ وَتَحَيُّزِهِ لِلْيَهودِ وثَورَةِ السِّتَّةِ وَثَلاثينَ والاحْتِلالِ الصُهْيونيِ لِبِلادِنا فِلَسْطين وروسيا وأَميرِكا والحَرْبِ الباردَةِ الَّتي لَمْ أُدْرِكْ ما تَكون.. وكَيفَ أَنْسَى الجَدَّ أَبا حَمَد وَهْوَ يَشْرَحُ لي كَيفَ يَتَكَوَّنُ المَطَرُ.. يَقولُ: كُلُّ شَيءٍ في هَذهِ الدُّنيا أُنْثَى وَذَكَر.. الرِّياحُ الشَّرْقِيَّةُ ذَكَرٌ، والطَّبيعَةُ أُنْثى.. يَتَناكَحانِ فَيَسْقُطُ المَطَرُ.. هوَ يَشْرَحُ، وأَنا أُصْغي إِليهِ ووَجْهي يَحْمَرُّ خَجَلًا... كُلَّما أَخَذَتْني الذَّاكِرَةُ إِلى بَراءَةِ تِلْكَ الأَيَّامِ أَحْبَبْتُ الحَياةَ أَكْثَرَ،

وأَحْبَبْتُ شَعْبيَ أكْثرَ وأحْبَبْتُ وَطَني أكْثرَ...! (يَتْبَع)

أَريجُ الذَّاكِرةِ.. (2)

لَعَلَّها تكونُ المَرَّةَ الأَخيرةَ، أَعودُ بِها إِلى ذِكْرَياتٍ قد يَعْتَبِرُها البَعْضُ أَمْرًا خَاصًّا، ناسينَ أَنَّ الهُمومَ الخاصَّةَ قد تكونُ نَوَاةً لِأَعْمالٍ أَدَبِيَّةٍ خالِدَةٍ. وقد يَعْتَبِرُها البَعْضُ بُكاءً على أَيَّامٍ أَكَلَ يابِسُها أَخْضَرَها، أَجْدى لَنا أَنْ نَنْساها. ولَكِنْ ما العَمَلُ، وأَنا العَبْدَ الفَقيرَ لِلّهِ، مَدينٌ لِتِلْكَ الأَيَّامِ بِما أَعْطَتْنيهِ من كَرَمِ سَاعاتِها أَسْتَمِعُ فيها إِلى قِصَصِ الشُّيوخِ وأَحاديثِهم الَّتي بَنَيتُ عليها قَلْعَتي الأَدبِيَّةَ، وكَتَبْتُ على مَدْخَلِها « مَنْ ليسَ لهُ كَبيرٌ فَلْيَبْحَثْ لَهُ عن كَبيرٍ». فَالذّاكِرَةُ الجَمْعِيَّةُ تُتَوارَثُ كاللُّغةِ، جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، تَكونُ حَنُوطًا يَحْفَظُ مَسيرَةَ شَعْبٍ تَنْتَظِرُ مَنْ يُدَوِّنُها.

كيفَ لِي أَنْ أَنْسى أُناسًا كَتَبَتِ الأَيَّامُ أَسْماءَهُم بِدِمائي وَعَلَّقَتْها على أَسْتارِ قَلْبي وَذاكِرَتي؟!كَالخوري جُبْران الَّذي على قَدْرِ ما كانَتْ تُفْرِحُني حِكاياتُهُ، كانَ يُحْزِنُني حَديثُهُ عنِ(البِروَةِ).. جَنَّتِهِ الضَّائعةِ. وكَعَمِّي أَبي مُحَمَّد فارس الَّذي أَفْهَمَني أَنَّ الفَقْرَ ليسَ عَيبًا، وَأَنَّ كُلَّ ثَوبٍ تَلْبَسُهُ يَبْلى إِلَّا ثَوبَ الكَرامَةِ لا يَبْلى. وَكَالعَمِّ أَبي صالِح سَلْمان زين الدّين الَّذي

اسْتَطاعَ بِروحِهِ المَرِحَةِ أَنْ يَتَغَلَّبَ على سَماجَةِ الحَياةِ مُنْتَظِرًا شَيخوخَةً تُقْعِدُهُ عَنِ العَمَلِ، والقُعودُ عِنْدَهُ أَجْمَلُ الكاراتِ! .. وَكَالعَمِّ أَبي داود يوسف جُبران الَّذي عَرَفَ بِذَكائِهِ الفِطْرِيِّ أَنَّ الحَياةَ صِراعٌ بينَ مُسْتَغِلٍّ ومُسْتَغَلٍّ وكَالعَمِّ أَبي مُنير فَرَح الَّذي حَبَّبَني بِدَولَةٍ بَعيدَةٍ عَنَّا، قَريبَةٍ من قُلوبِ الفُقَراءِ وَالشَّغِّيلَةِ المَسْحوقينَ تُسَمَّى الاتِّحادَ السُّوفييتيّ. وَكَأَبي كيفَ أَنْسى أَبي؟ وَهْوَ الَّذي أَخَذَني تَحْتَ جَناحَينِ من مَحَبَّةٍ وَرَحْمَةٍ، وَأَزْقَمَني الإيمانَ بِاللّهِ وَبِالعِلمِ، وبِأَنَّ المَنْطِقَ سَيِّدُ الأَحْكامِ.

أَذْكُرُ ذاكَ الزَّمانَ فَأَشُمُّ أَريجَ فِلَسطينَ، وَأَشْمَخُ بِرَأْسي عَالِيًا لِأَنَّني عايَشْتُ شُيوخًا رَحَلوا مُنْذُ زَمانٍ بَعيدٍ.. رَحَلُوا بَعْدَ أَنْ تَرَكوا لي حِكْمَتَهُم ومَحَبَّتَهُم حِرْزًا يَقيني، حَتْمًا، مِنَ الضَّياعِ في دُروبِ الحَياةِ وَدَهاليزِها.

حَديثُ شَجَرَةٍ..

سَأُحَدِّثُكُم اليومَ حَديثَ شَجَرَةٍ لا تحْمِلُ مَعنىً مَجازيًّا.. بَلْ هِيَ شَجَرَةٌ عَادِيَّةٌ لَها جُذورٌ وجِذْعٌ وفُروعٌ وأَغْصانٌ وأَوراقٌ. تَنامُ شِتاءً وتَسْتَيقِظُ رَبيعًا لِتُواصِلَ تَسْجيلَ تَاريخِ قَريَةٍ جَليلِيَّةٍ يَتَوارَثُهُ الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ. أَمَّا القَرْيَةُ فَهْيَ قَرْيَتِي البُقَيعَةُ، وأَمَّا الشَّجَرَةُ فَهْيَ شَجَرَةُ التُّوتِ البَرِّيَّةُ الشَّامِخَةُ في سَاحَةِ العَينِ في مَرْكِزِ القَرْيَةِ.. فَباللهِ عَلَيكُمْ إِذا زُرْتُمْ قَرْيَتِي اجْلِسُوا في ظِلِّهَا وانْظُرُوا إِلى جِذْعِهَا لِيُخْبِرَكَم أَنَّ عُمْرَها بِضْعُ مِئَاتٍ مِنَ السِّنينَ. ولَو نَظَرْتُمْ إِلى أَغْصانِها فَسَتُخْبِرُكُمْ خُضْرَتُها بِأَنَّها شَبابٌ دائِمٌ.

كُلَّما فَكَّرْتُ بِأَمْرِ شَجَرَتِنا المُبارَكَةِ هَذِهِ أَصِلُ في تَفْكِيري إِلى أَنَّ غَارِسَها كَانَ ذَكِيًّا يَنْظُرُ إِلى الأُمورِ بِعَينِ عَقْلِهِ، فَقَدْ تَفَتَّحَتْ عَينايَ وأَنا أَراها تَجْمَعُ تَحْتَها شُيوخَ القَرْيَةِ مِنْ مَسيحِيٍّ إِلى دُرْزِيٍّ إِلى مُسْلِمٍ إِلى يَهودِيٍّ. ولا يُساوِرُني أَدْنى شَكٍّ في أَنَّهُ كَانَ رُومانسِيًّا أَيضًا، هَذا إِذا لَمْ يَكُنْ شاعِرًا، فَغَرْسُهُ لِشَجَرَةِ التُّوتِ إِلى جانِبِ عَينِ الماءِ في مَرْكِزِ القَرْيَةِ حَيثُ تَرِدُ الصَّبايا لِيَمْلأْنَ جِرارَهُنَّ لَيسَ أَمْرًا عَفَوِيًّا بَلْ هو أَمْرٌ صَادِرٌ عَنْ قَلْبٍ

عَاشِقٍ أَحَبَّ أَنْ يَجْمَعَ بَينَ الماءِ والخَضْراءِ والوَجْهِ الحَسَنِ..

لا أَدْري لِماذا انْقَطَعَتْ زِياراتي لَها مَعَ أَنِّي كُنْتُ أُجالِسُها يَومِيًّا فَتُعيدُني طِفْلًا يَنْدَسُّ بَينَ الشُّيوخِ لِيسْتَمِعَ إِلى أَحاديثِهم.. إِلى جِدِّهم وإِلى هَزْلِهم فَأَزْدادَ مَعْرِفَةً يَومًا بَعْدَ يَومٍ.. وتَتَسامَى هِيَ شُموخًا سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ.

جِئْتُها مَرَّةً فَحَمَّلَتْني سَلامًا حَارًّا لِمَنْ أَتَوها - مِنَ الأَحْياءِ ومِنَ الَّذينَ رَحَلُوا عَنْ هَذِهِ الدُّنيا - ووَضَعُوا حِكايَةَ شَعْبٍ أَمانَةً بَينَ يَدَيها، ومَرَّةً جِئْتُها حَامِلًا لَها سَلامًا مِنْ صاحِبِ (سَجِّلْ أَنا عَرَبي) وكَانَ قَدْ أَلقاهَا بَينَ يَدَيها ذَاتَ يَومٍ غَبَرَ...

التَقَينا في رام اللّه لِقاءً عابِرًا، فَقُلْتُ لَهُ مُعَرِّفًا نَفْسِي: أَنا مِنْ قَرْيَةِ البُقَيْعَة، فَتَبَسَّمَ وقالَ: كَيفَ حَالُ التّوتَة؟ قُلْتُ: بِخَيرٍ، وهي في انْتِظارِكَ.. وطَالَ الانْتِظارُ.. وطَالَ.. وطَالَ.

اسْأَلُوا الغَوَّاصَ..

على مَقاعِدِ الابتدائِيَّةِ كانَ حُبُّنا الأوَّل.. وكانَ إِشْبيني أُستاذي وصَديقِي طَيِّبَ الذِّكْرِ الشَّاعِرَ مُنيب مَخُّول.. وعلى مَقاعِدِ الثَّانَويَّةِ أَصْبحَ حُبِّي لَها عِشْقًا، وكُنْتُ خَيرَ عاشِقٍ لِخَيرِ مَعْشوقَة.. وكانَ إِشْبيني أُسْتاذِي وصَديقِي طَيِّبَ الذِّكْرِ الشَّاعِرَ شَكيب جَهْشان. بَعْدَها أَصْبحَتْ شُغْلي الشَّاغِلَ، أَلْتَقيها يَومِيًّا، هِيَ تَفْتَحُ لِي قَلْبَها وتَبوحُ إِلَيَّ بِأَسْرارِها، وأَنا أَفْتَحُ لَها عَقْلِي وقَلْبِي وأَعْمَلُ جاهِدًا عَلى أَنْ أَكونَ جَديرًا بِحُبِّها أَمينًا عَلى ما تَبوحُ إِلَيَّ مِنْ أَسْرارِها. وكُلَّما انْكَشَفَ لِي سِرٌّ ازْدَدْتُ شَوقًا لِمَعْرِفَةِ ما انْغَلَقَ عَلَيَّ مِنْ أَسْرار.. وما انْغَلَقَ لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى. وقَليلًا قَليلًا وُجَدْ تُّني أَسيرَ حُبِّها وسادِنًا عَلى بَابِ مِحْرابِها.. فَهَلْ عَرَفْتُم مَنْ هِيَ هَذِهِ السَّاحِرَةُ الآسِرَة؟! إِنَّها لُغَتُنا العَرَبِيَّة. ومَا أَشْبَهَ اليَومَ بِالبارِحَة! فَمَنْ مِنَّا لَمْ يَقْرَأْ تَائِيَّةَ الشِّاعِرِ المِصْري الكَبيرِ حَافظ إِبْراهيم الَّتي نُشِرَتْ سَنَةَ 1903 وتَحْمِلُ اسْمَ « اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ تَنْعَى حَظَّها بَينَ أَهْلِهَا «، ومَنْ مِنَّا لا يَحْفَظُ بَيتَ الشِّعْرِ الجَميلَ الَّذي كَانَ عَلى مَدَى سَنَواتٍ طِوالٍ فَاتِحَةَ البَرْنامَجِ الإِذاعِيِّ « لُغَتُنا

الجَميلَةُ « والَّذي كَانَ يُقَدِّمُهُ مُعِدُّ البرَنْامَجِ الشَّاعِرُ المِصْرِيُّ المَعْرُوفُ فاروق شوشة بِصَوتِهِ الإذاعِيِّ الرَّخِيم:

أَنَا البَحْرُ في أَحْشائِهِ الدُّرُّ كامِنٌ

فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفاتي

يَحُزُّ في نَفْسِي، أَنا أَحَدَ سَدَنَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ، أَنْ أَرَى ما آلَتْ إِلَيهِ الحَالُ بِنا وبِأَبْنائِنا مِنْ صَمَمٍ ومِنْ عَمَىً فَلَمْ نَعُدْ نَسْتَشْعِرُ جَمالِيَّةَ لُغَتِنا، نَاسِينَ أَنَّ مَنْ أَجادَ لُغَتَهُ واعْتَزَّ بِها يَكُنْ عَزيزًا بَينَ شُعوبِ الأَرْضِ، فَاللُّغَةُ كَرامَةٌ، واللُّغَةُ إِرْثُ الأَجْدادِ لِلْآباءِ ولِلْأَبْناءِ ولِلْأَحفادِ..... فَاحْرِصُوا عَلى أَنْ تُتْقِنوها قِراءَةً وكِتابَةً ومُخاطَبَةً خَالِيَةً مِنْ شَوائِبَ دَخيلَةٍ عَلَيها.. اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ مُصْطَلَحاتٍ عِلْمِيَّةٍ أَو تِكْنُولوجِيَّةٍ، فَلُغَتُنا قَادِرةٌ عَلى هَضْمِها واسْتيعابِها.. وذَا شَأْنُ اللُّغاتِ الحَيَّة.

الاتِّحادُ لَيسَتْ وَرَقًا

وحِبْرًا فَقَط..

حينَ يقومُ إنسانٌ ما بعملِهِ خيرَ قِيامٍ دونَ أَن ينتظرَ مَديحًا أو مُكافأةً من أحدٍ؛ يكونُ هُوَ الَّذي يستأهِلُ أجملَ إطراءٍ وأجلَّ مَديحٍ.. خاصَّةً إذا كانَ ذاكَ الإطراءُ وهَذا المَديحُ صادِرَينِ عن مَادِحٍ لا يُجامِلُ وإنَّما ينطِقُ بما يُمْلي عليهِ وِجدانُهُ وبما يَحكُمُ به عقلُهُ.. فليسَ من حَرَجٍ إذًا؛ إنْ قُلتُ ما أُحِبُّ أَنْ أقولَهُ لَكُمْ وما لا تُحبُّونَ - رُبمَّا - أَنْ تَسمَعوهُ.. أَنتُمْ يا مَنْ تَسهَرونَ ونَحنُ نِيام.. ويا مَنْ تَعمَلونَ ونحن نَتَلَهَّى بما تَقودُنا إليهِ نُفوسُنا؛ والنَّفسُ تَجنَحُ بصاحِبِها إلى الرَّاحَةِ دائِمًا.. ولا أَقولُ إلى الكَسَلِ والتَّراخِي خَوفًا مِنْ أَنْ أُرمَى بِتُهمَةِ جَلْدِ الذَّات.

على كُلٍّ؛ هي وُجْهَةُ نَظَرٍ قادتْني إلى الوَرَقِ وأَنا بكامِلِ صَراحَتي وإيماني بما أَكتبُ.. فَمَنْ مِنَّا لا يَنتَظِرُ مَردودَ عَمَلِكُم كُلَّ صَباحٍ؟! وما مَردودُ عملِكم سِوى ما نَزَفَتْ أَقلامُكم وما جَنَتْ ذائِقَتُكم مَنْ هادِفِ أَدَبٍ وشامِلِ ثَقافَةٍ بِهَدْيٍ مِنْ رُوحٍ ثائِرَةٍ لا تقبلُ الضَّيمَ، ولا تَتَنازَلُ عن مَنسوبٍ عالٍ مِنْ

إيجابِيَّتِها وتَقَدُّمِيَّتِها.. ولا يَهُمُّ بعدَها إنْ تَكدَّرَ خَاطِرُ قَريبٍ أَو ضاقَ صَدْرُ حَبيبٍ، فكَلِمَةُ الحَقِّ شَجرةٌ وارِفَةُ الظِّلالِ، ومَنْ لا يَستظِلُّ بظِلِّها يُشْوَ بنارِ الباطِلِ.. وعِندَها كما يَقولُ الفادِي، ماذا يَنفعُ الإنسانَ إذا رَبِحَ العالمَ وخَسِرَ نَفسَهُ؟!

فيا أَعْضاءَ هيئَةِ تَحريرِ الاتِّحادِ.. ويا عامِلاتِها وعامِليها أَرْفَعُ إِليكُم تَحيَّتي، فاقْبَلوها على أَنَّها تَحيَّةُ شُكْرٍ وعِرْفانٍ مِنْ قارِئٍ يُؤْمِنُ بأَنَّ الاتِّحادَ ليسَتْ ورقًا وحِبرًا فقطْ بل هيَ دَمٌ حارٌّ يتحوَّلُ يومِيًّا إِلى كَلِماتٍ.

بِنْتُ الكَلْبِ الحَياةُ..

كَمْ نُحِبُّها!!

أَجملُ ما في الذِّكرى هو أَنْ تعودَ إِلى ماضٍ كانَ واقعًا حياتِيًّا حملَ لكَ ما حملَ من سعادَةٍ أَو من تعاسَةٍ لِيُصبِحَ على مَدَى الأَيَّامِ حَنينًا جارِفًا لذاكَ الماضي ناسِيًا أَو مُتَناسِيًا تفاصيلَ يا طُولَ ما أَوجَعَتْكَ. يكفيكَ أَنَّها- أَي الذِّكرَى - تُعيدُكَ إِلى أَيَّامٍ كُنْتَ فيها شابًّا حَالِماً بالزَّمنِ الآتي مَصوغًا برومانسيَّةٍ تُوهِمُكَ بِأَنَّكَ قادِرٌ على أَنْ تجعلَ الآتي لوحةً رائعةً أَنتَ تختَارُ قُماشَتَها وإِطارَها وتَشْكيلَةَ أَلوانِها. ولكنْ سُرعانَ ما تُذْهِلُكَ سُرعةُ حُضورِ الآتي.. فالآتي.. فالآتي.. لِيُصبحَ ماضِيًا حملَ الكثيرَ الكثيرَ من حاجاتٍ ظَلَّتْ في النَّفسِ كما هي - والقولُ لسيِّدِ العُشَّاقِ جميل بُثينة - ولِتُصبِحَ أَنتَ على مَدَى رُؤيةِ النِّهايةِ.. وهل النِّهايةُ سِوى دمعةٍ حارِقَةٍ على عزيزٍ، وباقَةِ زُهورٍ على شاهِدَةِ قَبْرٍ؟!

ليستْ فلسفةً، ولكنَّها خَواطِري أَو نَظْرَتي في الحياةِ بعدَ أَنْ دخلْتُ خريفَ العُمْرِ وأَنا أَتحسَّسُ نُدوبًا خَلَّفَتْها الأَيَّامُ في

طَيَّاتِ روحي وعلى تَجاعيدِ جَبْهَتي.. أَجَلْ إِنَّها الحياةُ! هذهِ الجميلةُ السَّاحرةُ بنتُ الكلبِ كم نُحِبُّها!! تأْخُذُنا في حِضنِها حينًا، وحينًا تَطْرَحُنا عنها بعيدًا بعيدًا وتَغْدِرُ بنا.

جَرَّني الموتُ إِلى طاولةِ قِمارِهِ مرَّةً وقالَ مَزهُوًّا: إِلْعَبْ! فإِذا نجوتَ من سرطانٍ يستوطِنُ جَسَدَكَ فلنْ تنجوَ من قلبٍ يُعاني من ضَعْفٍ مُزْمِنٍ في النَّبَّاضِ لا يحتَمِلُ خَوضَ لُعْبَةٍ كهذهِ.. دخلْتُ اللُّعبةَ مُكرَهًا وخرجْتُ شاكِرًا رَبِّي وقَلْبي الَّذي لم يَخْذِلْني...

سلامِي معَ باقةِ وردٍ جَليليٍّ أَرفَعُها إِلى الشَّاعرِ العربيِّ الفارِسِ الجميلِ سميح القاسم الّذي علَّمَنا كيفَ نُحيلُ ليلَ الهزيمةِ نهاراتِ انتصار.

سلامِي معَ قُبلةٍ بُقيعِيَّةٍ أَطبَعُها على جبينِ الشَّاعرِ الأُمَميِّ سالم جُبران الَّذي أَخّذَ بأَيدينا وأَدخَلَنا حديقَةَ الشِّعر.

سلامٌ على مَنْ تَغَنَّى معَ أَبي القاسمِ الشَّابيِّ:

سأعيشُ رغمَ الدَّاءِ والأَعداءِ

كالنَّسرِ فوقَ القِمَّةِ الشَّماءِ

أَرنو إِلى الشَّمسِ المُضيئَةِ هازِئًا

بالسُّحْبِ والأَمطارِ والأَنواءِ.....

هكذا غَنَّى بروميثيوس، وهذا هو نشيدُ الجبابِرَة.

لِمَنْ نَعْدُو..

جاءَ في كتابِ البُستانِ أَنْ عدا كلبٌ خَلْفَ غزالٍ، فقالَ له: لن تَلْحَقَني. فقالَ: لِمَ؟ قالَ: لأَنيِّ أَعدو لِنَفْسِي وأَنتَ تَعْدو لِصاحِبِكَ! ونحنُ بَنِي البَشَرِ، هل نَعْدو لِأَنفسِنا في ميادينِ الحياةِ فنكونَ غِزلانًا، أَم نَعْدو لِغيرِنا فنكونُ كِلابًا (بلا مُؤَاخذة!) أَعتقدُ أَنَّ هنالِكَ خيرًا مِنْ هذا وذاكَ وهو أَنْ نَعدو من أَجْلِ قَضيَّةٍ عادِلَةٍ / من أَجْلِ مَبدَإٍ نَرتَفِعُ به فوقَ جاهِلِيَّةٍ ما زالَتْ تَسري في عُروقِنا.. ماذا يَعْني أَنْ نأْخُذَ الحَضارَةَ ـ الَّتي لا نُساهِم في بِنائِها اليومَ ـ ثَوبًا مُزركَشًا نُغطِّي به عاهاتٍ مُستَديمَةً فينا؟ ماذا يَعني أَنْ ندخُلَ المعاهِدَ العُليا ونعودَ إِلى قُرانا عَبيدًا للعَصَبِيَّةِ العائِليَّةِ والطائِفِيَّةِ والعِرْقيَّةِ؟ ماذا يَعْني أَنْ نُسَخِّر العِلْمَ لِآلهةِ الحَربِ والدَّمارِ وعندَنا مِليارُ جائِعٍ على هذهِ الأَرْض؟! لقد جاءَتْ الدِّياناتُ حامِلَةً لنا نورَ الهُدى، فجاءَ مَنْ ضَلَّ وأَضلَّ، فَرَأَى النُّورَ ظَلامًا وجعلَ الهُدَى ضَلالًا، وما بينَ الظَّلامِ والضَّلالِ مَساحَةٌ واسِعَةٌ لِلشَّرِّ ولِفُرْقَةِ الإِنسانِ لِأَخيهِ الإِنسانِ. وجاءَتْ الأَعْيادُ لِتُمطِرَ فَرَحًا وكَعْكًا ومَحَبَّةً، فجاءَ مَنْ جَعَلَها خُطوطًا حَمْراءَ وأسلاكًا شائِكَةً تَفصِلُ

ما بينَ طائِفَةٍ وأُخْرَى ناسينَ أَو مُتَجاهِلينَ أَعيادًا لا حُدودَ تَحُدُّها، تَصْهَرُ بني البَشَرِ لِيُصبِحوا خامَةً واحدةً في عيدِ العُمَّالِ وعِيدِ المَرْأَةِ وعيدِ الأُمِّ وعيدِ الطِّفلِ وعيدِ رَأْسِ السَّنَةِ وعيدِ النَيروزِ (الرَّبيع) وما إِلى ذلك. لقد قالَ الفادِي يَسوع: مَنْ لا يَجْمَعُ معي فهو يُفَرِّقُ. ما أَحْوَجَنا إِلى ما قالَ يَسوع في زمنٍ صارَتْ نُبوءَةُ أَشِعْياءَ نُكْتَةً يُتَنَدَّرُ بها. والحياةُ لِلْأَقوى والضَّعيفُ فيها يُداسُ ـ أَفرادًا وجماعاتٍ ـ ولا أَدْري لِلآنَ مَنْ هو القَويُّ، ومَنْ هو الضَّعيفُ؟ وبِأَيَّةِ مَعاييرَ يُعَرَّفُ مَعْنى القُوَّةِ ومَعْنى الضَّعف!؟ لماذا لا يكونُ الاحتِلالُ ـ مثلاً ـ ضَعْفًا رَغْمَ بَطْشِهِ، والمُقاوَمَةُ قُوَّةً رَغْمَ مَحدودِيَّةِ إِمكانِيَّاتِها؟ وهل كانَ سُقْراطُ الحَكيم ضَعيفًا أَمامَ قاتِليهِ؟! لا أَظُنُّ..

صَباحٌ عَادِيٌّ..

أَجلسُ كُلَّ صباحٍ على شُرْفةٍ من شُرُفاتِ بيتي تُطِلُّ على جَبَلٍ شامخٍ يُعْرَفُ باسْمِ قريتي/البقيعة.. هذا الجبلُ يصلُ ارتفاعُهُ إلى ثماني مِئَةٍ وستَّةٍ وثمانينَ مترًا، وللمُفارَقاتِ الجميلةِ أَنَّ رقمَ هاتفي ينتهي بالأرقامِ (886) ما جعلَني مُتفائِلًا دائِمًا بما قد يصلُني من مُهاتفاتٍ.

أَجلسُ ومعي جَريدةُ الشَّعبِ/الاتّحادِ مع فنجانِ قهوةٍ حينًا، وأَحيانًا كثيرةً بِدونِهِ. فالقهوةُ عندي شَأْنٌ مِزاجيّ. أَمَّا السّيجارةُ فأَنا بريءٌ منها بَراءَةَ الذّئبِ من دَمِ يوسُفَ ابنِ يعقوبَ، فقد نشأَتْ بيني وبينَها غِلْظَةٌ وجفاءٌ، هي لا تكُفُّ عن مُناداتي وأَنا لا أَضْعَفُ إِزاءَ نِداءاتِها.

حينَ أُحدِّقُ في جَبَلي الَّذي يبعُدُ عن شُرْفَتي بِضْعَ عشراتٍ من الأَمتارِ أُحِسُّ بإِحساسٍ قد يكونُ أَقربَ ما يكونُ إِلى عَلاقةِ ابنٍ بأَبيهِ، أَو تِلميذٍ بمُعلِّمِهِ.. خُضرتُهُ الَّتي ازدادَتْ خُضْرَةً بِفِعْلِ الأَيَّامِ، واختِفاءِ قُطعانِ الماعِزِ، تنفُذُ إِلى الزَّوايا المُعْتِمَةِ في داخلي فتُحيلُها مُروجًا خضراءَ، وتَجري في عُروقي فَتُحيلُ تَشاؤُمي تَفاؤُلًا ويأْسي أَمَلًا. أَمّا أَصواتُ الحِجلانِ

الَّتي يُنادي بَعضُها بَعْضًا فلا أَقَلَّ من أَنَّها تُعطيكَ من ريشِها المُلَوَّنِ جَناحَينِ يحملانِكَ إلى فَضاءاتٍ قُصْوَى..

وحينَ أُحدِّقُ فيهِ وأُطيلُ النَّظرَ أَراني أَعودُ طِفْلًا مع رفيقِ صِبايَ (محمّد سعيد خير) نَرعَى قَطيعًا من الماعزِ، هو يَرعَى ثلاثينَ عَنْزةً، وأَنا أَرعى عَنْزَةً واحِدةً، فنقضي عُطلَةَ الصَّيفِ طائِرَينِ طَليقَينِ.. ما من صَخرَةٍ تُطِلُّ على القريةِ إلَّا جَلَسْتُ عليها أَستَمِدُّ من صَلابَتِها صَلابةً ومن صُمودِها صُمودًا، فأَرى قَريتي أُمًّا رَؤومًا تَسحبُ بُيوتَها وراءَها صُعودًا أَبَدِيًّا إلى قِمَّةِ الجَبَلِ.

وهل أَنسى يومًا التَقينا فيهِ (كمال محمد خير، جاري لاحِقًا) يَرْعى قَطيعًا، وكانَ أَكبرَ مِنّا سِنًّا، وسألْناهُ شُربَةَ ماءٍ فقالَ: ما معي ماءٌ، أَسقيكم حَليبًا! أَذكُرُ كيفَ اقترَبْتُ منهُ فاغِرًا فَمِي، وكانَ هو قد أَخذَ ضَرْعَ العنزَةِ بين كفِّهِ وأَصابِعِهِ ضاغِطًا، فَشَخَبَ الحَليبُ خَيطًا أَبيضَ رَفيعًا، أَصابَ فَمِي قَليلًا، وأَصابَ رأْسي ووَجْهي وصَدْري كثيرًا. بَلَعْتُ ما وَصَلَ فَمِي، وبِكُمِّ ثَوبي رُحْتُ أُجفِّفُ رأْسي ووَجْهي وصَدْري.

وهل أَنسى (أَسعد أَحمد محمود) المُهَجَّرَ من سُحماتا الَّذي عملَ راعِيًا أَجيرًا كيفَ كانَ يَرْعى القطيعَ ويَتَلَهّى بالعَزْفِ

على شَبّابَتِهِ السِّتَّاويّةِ؟! كانَ اللّحنُ يَتَناثَرُ من بين أَنامِلِهِ شاجِنًا باكيًا حينًا، وحينًا طَروبًا بَهيجًا. عَلَّمَني(أَسعدُ) أَنَّ صَوتَ النَّايِ وَنيسُ القُلوبِ الكَسيرَةِ، وأَنَّ الأَفراحَ الصَّغيرةَ ستُصبِحُ كَبيرَةً يومًا ما.

هذهِ هي قَريَتي.. هذا هو جَبَلي.. هذا أَنا.. هَؤُلاءِ أَهْلي...فيا ضميرَ هذا العالَمِ الغافِلَ الغَافي، جِئْني بِمَنْ يَبُزُّني لُصُوقًا بِتُرابِ هذا الوَطَن.

نَعْيُ شَجَرَة!

شجرةُ البُطْمِ المعمِّرةُ، والَّتي آنسُ برؤيتِها كُلَّما نظَرتُ إليها من شبّاكِ مكتبتي الجنوبيِّ، خاصّةً حينَ أَجلسُ إلى طاولتي لأُسجِّلَ خواطري؛ لم يمْهلْها جاري لتبلغَ المئَةَ منَ العمرِ، فأَعملَ بها مناشيرَهُ وكُلَّ ما يُسهِّلُ عليهِ تقطيعَ أَوصالِ الشّجرةِ المسكينةِ بلا شفقةٍ من قلبٍ أَو رحمةٍ من يدّ.. ومن أَينَ ستأْتي الرَّحمةُ والبسمةُ تغمرُ وجهَهُ المتعرِّقَ، وحساباتُهُ أَنَّهُ قد ضمنَ لهذا الشِّتاءِ الباردِ دِفْءَ شهر.

ما أَقسى هذهِ الحِسْبَة! يقايضُ شجرةً عمرُها ما يقاربُ المئَةَ عامٍ بشهرٍ من قضاءِ حاجةٍ عابرة! لقد قايضَ دُنيا منَ العنادلِ والحساسينَ واليمامِ، بلهيبِ نارٍ حارقةٍ زائِلةٍ.. لقد قايضَ الحياةَ بالموت. لقد قتلَ جاري شجرةً ولم يَدُرْ بخَلَدِهِ أَنَّهُ حرمَ العيونَ من خُضرةٍ كانَتْ بَهجةً للنّاظِرينَ، ومَسَحَ ظِلالًا كانتْ ملاذًا لعمّالٍ تحرَّقَتْ وجوهُهم فلاذوا إلى ظِلالِها مُجْهَدين.

أَجلسُ اليومَ إلى طاولتي، ومن خَلَلِ شُبّاكِ مكتبتي، لا أَرى سوى بقيَّةِ جذعٍ نزعوا عنهُ شموخَهُ، وقطَّعوا أَوصالَهُ، ولم

يتركوا خلفَهم سوى صَدى خَرْخَرَةِ مناشيرَ وصيحاتِ فرحٍ وبقايا غباءٍ..... وحزنًا تلبَّسَني لا أَدري متى يقولُ لي وداعًا!

لَنْ أَقولَ رحمَ اللهُ شجرتي، فهْي باقيةٌ في وِجداني ما دمتُ باقيًا! .... سأَقولُ رحمَ اللهُ صاحبَها، فالرَّحمةُ تَجوزُ على الأَمواتِ وعلى الأَحياء!

ما أَجْمَلَ الحَياة!

ما أَجملَ الحياةَ بلا مُثيري فتنٍ، ومُشعلي حروب! وإذا كانت نبوءَةُ أَشِعْياءَ صعبةَ المنالِ فالعقلُ البشريُّ المتحضِّرُ يستطيعُ أن يحقّقَها، هذا إذا كانت نَزْعَةُ الخَيرِ غالبةً نزعةَ الشَّرِّ في عقلِه. لكأَنَّ هذا العقلَ البشريَّ مُسيرٌ لا مُخيرّ؛ فحينًا يأْتينا بما ينفعُ البشرَ ويُسَهِّلُ الحياةَ عليهم بسلسلةٍ طويلةٍ من الاختراعاتِ آخرها (ال أي- فون)؛ وحينًا يأْتينا بما يجعلُ الإنسانَ شيئًا زائدًا لا نفعَ فيه أَوّلها الرّمحُ وآخرها الذّرةُ. هذهِ الذّرّةُ الّتي لا تُرى بالعينِ المُجرَّدةِ قادرةٌ على أَن تُدمّرَ كوكبَنا الجميلَ هذا عشراتِ المرّاتِ، وربمّا أَكثر! والغريبُ في الأَمرِ أَنَّ مفاتيحَ هذهِ المبيداتِ الكونيّةِ بيدِ رئيس الدّولةِ المالكةِ لهذهِ المُبيدات. أَيُّ حياةٍ هذهِ الّتي نحياها مصيرُها منوطٌ بمزاجِ رجلٍ ليسَ له ضامنٌ إن فقدَ عقلَه فجأَةً وراحَ يضربُ على مفاتيحِ تلكَ المُبيداتِ ظَنًّا منه أَنَّه يضربُ على مفاتيحِ أُورغ أو بيانو؟!

لستُ يائسًا ولا خائفًا ولكنّها أَسئلةٌ عائمَةٌ في فضاءِ وَحْدَتي لا أَبحثُ لها عن حلولٍ؛ وإنّما تَجْعَلُنِي أَدينُ هذا العالمَ

المتحضِرَ الّذي نعيشُ فيه... قد أَجدُ عذرًا لأَسدٍ يفترسُ غزالًا بدافعِ صراعِ البقاء؛ ولكنْ ما العذرُ لِإنسانٍ يخترعُ ما يجعلُ حياتنا فيلمَ رعبٍ بَدَأَ برُمحٍ وانتهى بذرَّةٍ.. ومَن يدري فالبقيّةُ تأْتي!!!

ماذا سَأَكْتُبُ؟!

كَثيرًا ما أَسْأَلُ نَفْسي: ماذا سَأَكْتُبُ؟ سُؤالٌ قَدْ يَكونُ جَوابُهُ سَهْلًا على قارِئٍ وجَدَ في مَقالَتِي مادَّةً خَفيفَةً على قَلْبِهِ، فَأَعطاني ثِقَتَهُ كامِلَةً. وجَوابُهُ الأَصْعَبُ عِنْدي إِذْ كَيفَ أَحْرِصُ على أَنْ أَكونَ قادِرًا على صَونِ تلكَ الثِّقَةِ وذلكَ بِما أُقَدِّمُهُ مِنْ مادَّةٍ جَديرَةٍ بِالقِراءَة. فَما هيَ المادَّةُ الجَديرَةُ بِالقِراءَةِ إِذًا؟ بِكُلِّ ثِقَةٍ أَقولُ إِنَّها المادَّةُ الّتي إِذا قَرَأَها أَيُّ قارِئٍ لا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ أَضاعَ وقْتَهُ- وقد يكونُ ثَمينًا! -ولا أَدْري بَعْدَها إِنْ عادَ الى القِراءَةِ أَصْلًا. ما أَقسى على قَلبِ الكاتِبِ أَنْ يَدورَ في خَلَدِ القارِئِ كَلِماتٌ تَحْمِلُ ما يَخْدِشُ مَكانَتَهُ الأَدَبِيَّةَ، مَشْهورًا كانَ أَمْ مازالَ في بِدايَةِ طَريقِهِ الصَّحَفَيِّ أَو الأَدَبيّ.

العَمَلُ الأَدَبيُّ بِرُؤْيَةِ الكاتِبِ الجادِّ، بِحاجَةٍ الى رَصيدٍ كَبيرٍ مِنَ المُفْرَداتِ اللُّغَوِيَّةِ المُتَجَدِّدِةِ باسْتِمرار، وهذِهِ لا تَتِمُّ إِلّا بِسِعَةِ الاطِّلاعِ الحاصِلِ بِالقِراءَةِ الَّتي قد تُصْبِحُ عِنْدَ البَعْضِ إِدْمانًا يَومِيًّا. العَمَلُ الأَدَبيُّ بِحاجَةٍ الى خِفَّةِ ظِلِّ الأَديبِ وذَكائِهِ، بِدونِهِما لا يَتِمُّ التَّواصُلُ بَينَهُ وبَينَ قارِئِهِ. وما التَّواصُلُ الّذي نَعْنيهِ سِوى تِلكَ الفنِّيَّةِ الّتي تَنْقُلُ القارِئَ مِنْ واقِعِهِ اليَومِيِّ

إِلى عالَمٍ قدْ يَجِدُ فيهِ ما يُلْهيهِ، لو لِدَقائِقَ، عَنْ أَتْعابِ يَومِهِ .

لو سَأَلْنا الأُدَباءَ: لِماذا تَكْتُبونَ؟ سَنَجِدُ أَنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ أَسْبابَهُ، ولكِنَّهُمْ يَتَّفِقونَ على أَنَّ الكِتابَةَ عَمَلٌ أَخْلاقِيٌّ فَنِّيٌّ يُكَرَسُ لِخِدْمَةِ الإِنْسانِيَّةِ ورُقِيِّها..

شُؤُونٌ صَغيرَةٌ..

فَرِحَتْ زَوجَتي حينَ فاجَأْتُها قائِلًا: سَأُريحُكِ هذا الشِّتاءَ مِنْ مُهِمَّةِ التَّدْفِئَةِ! رَشَقَتْني بِنَظْرَةٍ فيها الكَثيرُ مِنَ الشَّكِّ.. قُلتُ لَها: أَنا جادٌّ فيما أَقولُ.. خاصَّةً بَعْدَ أَنْ أَعَدْنا لِلْوِجاقِ اعْتِبارَهُ فَتَصَدَّرَ غُرْفَةَ الاسْتِقبالِ ساخِرًا مِنْ وَسائِلِ التَّدْفِئَةِ على تَعَدُّدِ أَنْواعِها والَّتي تَقَهْقَرَتْ أَمامَ بَرْدِ الجَليلِ الغَرْبي الشَّمالي حَيثُ تَقَعُ البُقَيعَةُ قَرْيَتي.

أَلْقَمْتُ الوِجاقَ حَطَبًا، ثُمَّ أَشْعَلْتُهُ، فَأَخَذَتْني نارُهُ المُتَأَجِّجَةُ إِلى أَيّامِ الطُّفولَةِ حيثُ كانَتْ وَسيلَةُ التَّدْفِئَةِ لا تَزيدُ عَنْ مَوقِدٍ في زاوِيَةٍ مِنْ زِوايا الغُرْفَةِ يَعْلوها الدّاخونُ/ وَسيلَةٌ فَلّاحِيَّةٌ ذَكِيَّةٌ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الدُّخانِ.. كَمْ كُنّا نَحْنُ الأَخَواتِ والإِخْوَةَ، نَتَزاحَمُ فيما بَيْنَنا على مَنْ سَيَحْتَلُّ إِحدى الزّاوِيتَينِ أَوَّلًا! فَزاوِيَةُ المَوقِدِ هي الأَقْرَبُ مِنَ النّارِ، وهي الأَكْثَرُ دِفْئًا؛ أَمَّا إِذا وِصَلَ الأَمْرُ بَيْنَنا إِلى حَدِّ العِراكِ فَكُنّا نَقْتَسِمُ الوَقْتَ على أَنْ يَأْخُذَ كُلٌّ مِنّا نَصيبَهُ مِنَ الجُلوسِ في مَكانٍ الجالِسُ فيهِ مَحْسودٌ. هذا إِذا لَمْ يَطْرِقِ البابَ زائِرٌ أَو ساهِرٌ فَلَهُ الحَقُّ في أَنْ يَخْتارَ المَكانَ الَّذي يُريدُ بِلا مُنازِعٍ أَو حَرَجٍ.

لَو وَقَفَ الأَمْرُ عِنْدَ هذهِ الذِّكْرى الجَميلَةِ لَهانَ الأَمْرُ! ولكِنَّها أَيقظَتْ في رَأْسِي أَسْئِلَةً نَغَّصَتْ عَلَيَّ فَرَحِي في لَيلَتي الدّافِئَةِ هذهِ.. سأَلْتُ نَفْسي: ماذا عَن مَلايينِ المُتَشَرِّدينَ في هذا العالَمِ المُتَحَضِّرِ؟! ما نَفْعُ حَضارَةٍ عاجِزَةٍ عَنْ أَنْ تَحْميَ أَبْناءَها مِنْ حَرِّ الصَّيفِ ومِنْ بَرْدِ الشِّتاءِ؟! هل سنرَى أَنظِمَةً لا تُبْنَى على إِفقارِ الفَقيرِ وإِغناءِ الأَغنِياءِ؟!.... ومَتى!؟..... أَعادَني صَوتُ زَوجَتِي إِلى واقِعِي سائِلَةً: أَراكَ قَد أَشْعَلْتَ النّارَ وطابَ لَكَ الجُلوسُ أَمامَها صامِتًا.. بِماذا تُفَكِّرُ؟ قُلتُ: أُفَكِّرُ بِطَريقَةٍ تَمْنَعُني مِنَ التَّفْكير.

الحَافِلاتُ العَامَّةُ..

أَفلَ نجمُ الحافلاتِ العامَّةِ بعدَ أَن كانَ ساطعًا في زمانٍ ليسَ بِبَعيدٍ؛ وغصَّتِ الشَّوارعُ بالسِّيّاراتِ الخُصوصِيَّةِ (الملّاكي) على اختلافِ أَنواعها، وتبايُنِ أَثمانِها. فإِذا ركبتَ حافلةً اليومَ تجدُ نفسَكَ بينَ مسافرينَ يُعَدّونَ على أَصابعِ يديكَ الاثنتينِ لا أَكثرَ بعدَ أَن كانتْ تسيرُ مُثْقَلَةً بالمسافرينَ، منهم الجالسُ، ومنهم الواقفُ، والهرْجُ لا ينقطعُ ما لم يصلِ المُسافِرونَ إِلى غاياتِهم.

لم تكنِ الحافلاتُ مجرّدَ وسائلِ نقلٍ من القُرَى إِلى المُدنِ، وإِنّما كانتْ عيّنةً فَريدَةً لِمُجْتَمَعٍ فَريدٍ جمعَ بينَ سكّانِ قرىً لِتُصبِحَ قريةً واحدةً أَو تكادُ. كم من قُلوبٍ مُتنافِرةٍ تآلفتْ بعدَ عِتابٍ، وكم من عيونٍ تبادلَتْ دِفْءَ نظراتٍ انتهتْ بزواجٍ ميمون. ولن أَكونَ مُبالِغًا إِن قلتُ بأَنَّ مئاتِ الكتبِ والمجلّاتِ قد قُرِأَتْ من قرّاءٍ جعلوا ساعاتِ سفرهم وقتًا حَميدًا للمُطالَعَة.

لقد كَثُرَتِ السَّيّاراتُ الخُصوصيَّةُ فأَبعدتِ النّاسَ عن بَعضها، وجاءَ التِّلفزيون فأَبعدَ الجارَ عن جارِهِ، وجاءَ (الآي فون) فأَبعدَ الأَخَ عن أَخيهِ! وأَصبحتِ السَّهَراتُ مَقصورةً على

بعضِ الأَصدقاءِ وعلى الأَقاربِ والبناتِ والأَبناءِ والأَحفاد. ويا لها من سَهَرات! فقد جعلتِ الجَدَّ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

رحمَ اللهُ زمانًا كانتِ الحافلاتُ العامَّةُ لا توصلُ القريةَ بالمدينةِ فقط، بل كانتْ تصِلُ القلبَ بالقلبِ أَيضًا!

عَنِ الأَسْماءِ..

إذا وَجَدْنا العُذْرَ لِمَنْ يَتَحَدَّثُ مُدْخِلًا إلى عَرَبِيَّتِهِ كَلِماتٍ غيرَ عَرَبِيَّةٍ، خاصَّةً العِبْرِيَّةَ، فَلا عُذْرَ لِلَّذينَ يُسَمُّونَ أَبْناءَهُم وبَناتِهِمْ أَسْماءً غَيرَ عَرَبِيَّةٍ. فَالاسْمُ يَحْمِلُ لِصاحِبِهِ نَبْضًا قَومِيًّا.. هذِهِ مَسْأَلَةٌ لا نِقاشَ فيها.. فَإِذا سَمِعْنا الاسْمَ (محمد) عَرَفْنا أَنَّ المُنَادَى عَرَبِيٌّ، أَمَّا إذا سَمِعْنا الاسْمَ (ريتْشارد) عَرَفْنا أَنَّ المُنَادَى إِنْجليزِيٌّ.

ما دامَ الأَمْرُ كَذلِكَ فَتَسْمِيَةُ المَولودِةِ أَوِ المَولودِ يَجِبُ أَنْ تَتِمَّ لا كَما اتَّفَقَ بِلْ بَعْدَ سُؤَالٍ نَسْأَلُهُ لِأَنْفُسِنا: ماذا يَجِبُ أَنْ نُسَمِّي مَولودَنا/مَولودَتَنا؟ الجَوابُ الأَسْهَلُ كَما اعْتادَ آباؤُنا وأَجْدادُنا أَنْ يَفْعَلوا؛ فَقَدْ كانُوا يُسَمُّونَ المَولودَ البِكْرَ على اسمِ الجَدِّ، والمَولودَةَ البِكْرَ على اسْمِ الجَدَّةِ. وباقي الأَبْناءِ كانوا يُسَمَّوْنَ على أَسْماءِ الأَنْبِياءِ والأَولِياءِ والرِّجالِ الصّالِحينَ، والبَناتِ على أَسْماءِ النِّساءِ الصّالِحاتِ والمَشْهوراتِ مِنْهُنَّ. وأَمّا الجَوابُ الأَصْعَبُ فهو اخْتِيارُ الأَسْماءِ الَّتي يَجِبُ أَنْ تَحْمِلَ المَعنى الجَميلَ والصِّفاتِ الحَميدَةَ كَأَسْماءٍ مِثْلِ (كَريم ورَؤُوف وناصِر وعَلياء وهِنْد ونَبيلَة.....)

ومِنْ هُنا قالوا: فُلانٌ اسمٌ على مُسَمّى! التَّنازُلُ عنْ عُروبَةِ الأَسْماءِ هوَ التَّنازُلُ عَنِ العُروبَةِ نَفْسِها، فَنَحْنُ في بَلَدٍ حُكِمَ عَلَيهِ وعَلَينا أَنْ نَعيشَ مَعَ شَعْبٍ آخَرَ ولِذا عَلَينا اَنْ نُحافِظَ على الجَميلِ مِنْ عاداتِنا وتَقاليدِنا وأَسْمائِنا وكُلِّ ما يَزيدُ في تمَاسُكِنا، ولَيسَ عَيبًا أَنْ نُدْخِلَ كَلِمَةً غَيرَ عَرَبِيَّةٍ حينَ لا نَجِدُ لها بَديلًا في لُغَتِنا، وإِنمَّا العَيبُ في أَنْ نُسَمِّي أَبْناءَنا وبِناتِنا أَسْماءً غَيرَ عَرَبِيَّةٍ..

أَنا عَرَبِيٌّ..

قُلْها بِمُكَبِّرِ صَوتٍ..

نَسْمَعُ أَو نَقْرَأُ، مِنْ حينٍ لِآخَرَ، عَنْ عُقولٍ عَرَبِيَّةٍ شابَّةٍ اكْتَشَفَتْ أَو سَجَّلَتْ بَراءَةَ اخْتِراعٍ في شَتّى المَجالاتِ.. بِهذِهِ العُقولِ الخَلَّاقَةِ نَسْتَطيعُ القَولَ إِنَّ مَراحِلَ الجَهْلِ والتَّجْهيلِ قَدْ بَدَأَتْ تُلَمْلِمُ فُلولَها وتَلْحَقُ بِمَنْ أَغْلَقَ مَدارِسَ أَجْدادِنا وآبائِنا مِنْ مُحْتَلِّينَ لِوطَنِنا العَرَبيِّ – بَلْهَ فِلَسْطينَ – وفَرَضوا سِياسَةَ التَّجْهيلِ كَيَ يَعيثُوا في الأَرْضِ فَسادًا، ويَنامُوا في أَسِرَّتِهِمِ الأَبنوسِيَّةِ هانِئِينَ. والمُحْتَلُّ يَعْرِفُ تَمامًا أَنَّ العُقولَ النّاشِطَةَ أَشَدُّ وأَحَدُّ عَلَيهِ مِنْ حَدِّ السِّكِّينِ.

جاهِلٌ، أَو عارِفٌ مُغْرِضٌ مَنْ يَنْسى الحِكْمَةَ القائِلَةَ: ما حَكَّ جِسْمَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ؛ وَأَجْهَلُ مِنَ الاثْنَينِ مَنِ انطَلَتْ عَلَيهِمْ كِذْبَةُ الدُّخَلاءِ بِأَنَّ قُدُراتِهِمِ الماديَّةَ والعِلْمِيَّةَ أَكْبَرُ مِنْ قُدُراتِهِمْ هُمْ، وأَنَّهُمْ جاؤُوا لِتَحْريرِ البِلادِ مِنْ حُكْمٍ ظالِمٍ سابِقٍ؛ وأَنَّ الحَياةَ سَوفَ تَرْقى بِوُجودِهِمْ مِنَ النَّقيضِ الى النَّقيضِ.

بورِكَتْ هَذِهِ العُقولُ العَرَبِيَّةُ فَقَدْ أَثْبَتَتْ أَنَّها إِذا ارْتَوَتْ أَعْطَتْ

ثمَرًا طَيِّبًا، وإِنْ تَشَذَّبَتِ ارتَفَعَتْ عالِيًا. فَلْتَذْهَبْ (هوليوود) بِعُروضِها السّينَمائِيَّةِ الّتي مِنْ وَرائِها الإِمْبِرْيالِيَّةُ والصُّهْيونِيَّةُ العالَمِيَّةُ إِلى حَيْثُ ذَهَبَ كُلُّ مُحْتَلٍّ زَنيمٍ.. تِلْكَ العُروضُ الَّتي صَوَّرَتِ العَرَبِيَّ قاتِلَ أَطْفالٍ أَو مُغْتَصِبَ نِساءٍ، وفي أَفْضَلِ الأَحْوالِ سارِقًا مُحْتالًا لا يُؤْتَمَنُ جانِبُهُ.

هَذِهِ البِدايَةُ.. ووالله لَو نَهَضْنا بِالعِلْمِ كالصَّلاةِ جَماعَةً لَشَدَدْنا أَعْداءَنا الى قاعِ البَحْرِ، وبَعْضُ هذا القَولِ لِلْعَلّامَةِ الخالِدِ جَمال الدّينِ الأَفْغانيِّ..

حِوارِيَّةٌ..

في لَيلَةٍ لَيلاءَ زارَني جَدِّي آدَمَ، وكانَ لا يَزالُ يَرْتَدِي سُتْرَةً مِنْ وَرِقِ التّينِ؛ جاءَني وهْوَ يَبْكي. صِحْتُ لا مِنْ مُباغَتَتِي بِزِيارَتِهِ بِقَدْرِ رُؤْيَتِي إِيّاهُ باكِيًا: أَتَبْكِي يا جَدِّي وأَنْتَ أَبُو البَشَرِ؟! نَظَرَ إِلَيَّ بِعَينَينِ مِنْ نورٍ ونارٍ وقالَ: ما هذا الَّذي تَفْعَلونَهُ وقَدْ وَهَبَكُمُ اللهُ السِّيادَةَ على هذِهِ الأَرضِ مِنْ بَعْدي؟، لَكُمْ خَيراتُها ولَكِنَّكُمْ لا تَحْمَدونَ ولا تَشْكُرونَ! لا بَلْ عِنْدَ القِسْمَةِ تَقْتَتِلونَ؛ لَقَدْ صِرْتُمْ قُطْعانَ ذِئابٍ قَوِيُّكُمْ يَأْكُلُ ضَعيفَكُمْ، هذا والخَيرُ عَميمٌ، فَكَيفَ لو كانَ شَحيحًا، فَماذا كُنْتُمْ فاعِلينَ؟!

قُلْتُ: ولكِنَّنا يا جَدِّي لَسْنا في خَنْدَقٍ واحِدٍ، فينا الصّالِحُ وفينا الطّالِحُ. تابَعَ وكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ كَلِماتي: وسَمِعْتُكُمْ تَتَحَدَّثونَ بِلُغاتٍ لا أَفْهَمُها، وقَدْ عَلَّمْتُكُمْ لُغَةً واحِدَةً هِيَ أَحِبُّوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا. وسَمِعْتُكُمْ تَحْسِبونَ أَمْوالَكُمْ وتَكيلونَ مَحاصيلَكُمْ بِأَرْقامٍ وبِمَكاييلَ لا أَفْقَهُها لِأَنِّي أَعْرِفُ مِكْيالًا واحِدًا وقَدْ عَلَّمْتُكُمْ إِياهُ وَهوَ: لِيَكُنْ رِزْقُكُم شِرْكَةً بَينَكُم، ولا تَأْخُذُوا مِنْ خَيراتِ الأَرضِ أَكْثَرَ مِمّا اَنْتُمْ بِحاجَةٍ إِلَيهِ.

قُلْتُ: أَأَنْتَ نادِمٌ على أَنَّنا اَبْناؤُكَ؟ قالَ: لَسْتُ نادِمًا ولَكِنِّي

حانِقٌ، فَقَدْ عَلَّمْتُكُمْ ما أَوحى إِليَّ بِهِ رَبِّي، فَخَذَلْتُموني وبَدَّلْتُمُ المَحَبَّةَ بِالكَراهِيَةِ، والكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ بِصَليلِ السُّيوفِ. قُلْتُ: يا جَدِّي لا تُوجَدُ سُيوفٌ اليومَ بَلْ يوجَدُ الرَّصاصُ. قالَ: وما الفَرْقُ؟ ما دامَتِ النَّتيجَةُ واحِدَةً! قُلْتُ: أَعِنْدَكَ مِنْ شَيءٍ أَخيرٍ تَقولُهُ؟

قالَ: أَلا تَكْفيني حَسْرَتي على هابيل!؟ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيكُمْ! .... قالَها واخْتَفى.

ثَلاثُ شِهاداتٍ في شَهْرٍ واحِدٍ!

أَنا، والعِياذُ بِاللهِ مِنْ هَذِهِ الأَنا، تَعَلَّمْتُ سِياقَةَ السَّيَّارَةِ على كِبَرٍ؛ وأَعْتَرِفُ أَنَّنِي أَتْعَبْتُ المُعَلِّمَ الّذي جازَفَ وقَبِلَ تَعْليمِي وأَنا في الخَمْسينِيّاتِ مِنْ عُمْرِي. ومَعْلومٌ أَنَّ السِّياقَةَ تَحْتاجُ إِلى تَناسُقٍ حَرَكِيٍّ، وهذا يَكونُ أَكْثَرَ نَشاطًا عِنْدَ الإِنْسانِ في شَبابِهِ.

والحَقُّ يُقالُ أَنَّنِي أَخَذْتُ رُخْصَةَ السِّياقَةِ بِاسْتِحْقاقٍ بَعْدَ عَشَراتِ الدُّروسِ، وبَعْدَ أَنْ تَعَلَّمْتُ وأَجَدْتُ كَيفَ أُفَكِّرُ بِقَدَمَيَّ لا بِعَقْلِي!

وَأَخيرًا جَلَسْتُ خَلْفَ المِقْوَدِ سائِقًا لا تِلْميذًا؛ وفي أَوَّلِ مَرَّةٍ أُسافِرُ فيها انْطَفَأَ موتورُ السَّيّارَةِ عِنْدَ إِشارَةِ المُرورِ مِمّا أَغْضَبَ السّائِقينَ الَّذينَ وَرائِي إِذْ عَلَيهِمْ أَنْ يَنْتَظِرُوا الإِشارَةَ الخَضْراءَ التّالِيَةَ؛ فَما كانَ مِنَ السّائِقِ الَّذي ورائِي أَنْ صاحَ بِالعِبْرِيَةِ: حِمار!

وفي سَفْرَةٍ أُخْرى في نَفْسِ الشَّهْرِ، وأَنا مِنْ عادَتي أَنْ أَقودَ السَّيّارَةَ ضِمْنَ القانونِ، سَبَقَتْنِي سَيّارَةٌ مُسْرِعَةٌ، ولِدَهْشَتي نَظَرَتْ إِلَيَّ السَّائِقَةُ وصاحَتْ بِغَضَبٍ، وبِالعِبْرِيَّةِ أَيضًا:

أَحْمَق! ولِلْحَقيقَةِ الخالِصَةِ لَمْ أَجِدْ نَفْسِي غاضِبًا بِقَدْرِ ما أنا مُسْتَغْرِقٌ في تَفْكيرٍ عَميقٍ. وتَساءَلْتُ: تُرى لِماذا يَحْدُثُ هَذا؟ أَمَا لِلطَّريقِ آدابُها؟ لِماذا نَحْنُ مَشْحونونَ دائِمًا بِهَذِهِ العَصَبِيَّةِ العالِيَةِ؟ أَدْرِي أَنَّ العامِلَ الاقْتِصادِيَّ وضِيقَ العَيشِ سَبَبانِ أَساسِيّانِ وراءَ هَذِهِ العَصَبِيَّةِ المُفْرِطَةِ؛ ولكِنْ أَلَيسَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُصْرَفَ هَذِهِ الطَّاقَةُ السَّلْبِيَّةُ بِطَريقَةٍ حَضارِيَّةٍ ضِدَّ المَسْؤُولينَ في هَذِهِ الدَّولَةِ بَدَلَ أَنْ نَصْرِفَها على بَعْضِنا؟!

ثَلاثُ شَهاداتٍ حَصَلْتُ عَلَيها في شَهْرٍ واحِدٍ؛ فَكَمْ شَهادَةً يا تُرَى سَأَحْصُلُ عَلَيها في سَنَةٍ!؟

تَلاقُحُ اللُّغاتِ..

لا أُنْكِرُ على مَجامِعِ اللُّغاتِ، حَيثُما وُجِدَتْ، نَشاطاتِها الجَليلةَ في البَحْثِ والتَّنْقيبِ، لإيجادِ البَديلَ لِلْكَلِماتِ الدَّخيلَةِ على تلكَ اللُّغاتِ. ونَحْنُ هُنا في هذِهِ البِلادِ ثُنائِيَّةِ القَوميَّةِ، عِنْدَنا خُصوصِيَّةٌ تَجْعَلُنا في قَلَقٍ دائِمٍ يَصِلُ عِنْدَ البَعْضِ حَدَّ الخَوفِ على لُغَتِنا (لُغَةُ الأَقَلِّيَّة) مِنَ الانْدِحارِ أَمامَ اللُّغَةِ العِبْرِيَّةِ (لُغَةُ الأَكْثَرِيَّة). فَاللُّغَةُ العِبْرِيَّةُ هي اللُّغَةُ الرَّسْمِيَّةُ نَتَداوَلُها في الجامِعاتِ وفي المَصانِعِ والمَتاجِرِ وجَميعِ المَرافِقِ الاقْتِصادِيَّةِ... ولكِنِّي أُؤَكِّدُ أَنْ لا خَوفَ على لُغَتِنا العَرَبِيَّةِ، أَمَغْلوبينَ كُنَّا أَمْ غالِبينَ، هذِهِ اللُّغَةُ الَّتي تَحْتَوي على اثْنَتَي عَشَرَ مليونَ مُفْرَدَةٍ قادِرَةٌ على أَنْ تَبْتَلِعَ ما تَحْتاجُهُ مِنْ مُفْرَداتٍ أَعْجَمِيَّةٍ وتَهْضِمَها هَضْمًا لِتَخْرُجَ عَرَبِيَّةً لِكُلِّ شَيءٍ. فَمَثَلًا أَطَلَّ عَلَينا التّلفون، ولَمْ يُقَصِّرْ أَعْضاءُ مَجْمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ في إيجادِ البَديلِ العَرَبيِّ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ الأَجْنَبِيَّةِ فَقالوا (الهاتِف) ولكِنَّنا في حَديثِنا وفي كِتابَتِنا نَسْتَعْمِلُ الكَلِمَةَ الدَّخيلَةَ فَنَقولُ (تَلْفَنَ- تَلفَنْتُ- مُكالَمَةٌ تِلفونِيَّةٌ...) وهذا يَنْسَحِبُ على كَلِماتٍ مِثل (تلفزيون وفاكس وغَيرِها...)

في اللُّغاتِ (وهذا رأْيٌ شَخْصِيٌّ) لا يوجَدُ غالِبٌ أَو مَغْلوبٌ، بَلْ كَلِماتٌ يَتَحَدَّثُ النّاسُ بِها لِيُعَبِّروا عَمَّا يُريدونَ بِأَقْصَرِ وَأَوضَحِ الطُّرُقِ، وهذا ما يُسَمَّى بِتَلاقُحِ اللُّغاتِ بَعيدًا بَعيدًا عَنْ تَصارُعِ القَومِيّاتِ. فَبِأَيِّ حَقٍّ نَخافُ على لُغَتِنا مِنْ هذا التَّلاقُحِ وعِمادُنا ذاكَ التُّراثُ الأَدَبِيُّ الثَّقافِيُّ الخالِدُ وعلى رَأْسِهِ القُرآنُ الكَريم!؟

لُغَةٌ بِهذِهِ القُدُراتِ لا خَوفَ عَلَيها إِنْ قالَ طِفْلٌ لِأُمِّهِ: يا أُمِّي اشْتَرِي لي (لَحْمِنياه)!

الإنْسانُ والوَطَنُ..

جَميلٌ أَن يبنيَ الواحِدُ مِنّا بَيتًا، وأَجمَلُ مِنْهُ أَن يترُكَ قَدْرَ ما يستطيعُ من مَساحَةٍ مِنَ الأَرضِ لِيَجعَلَ منها حديقةً تَزيدُ جمالَ البيتِ جمالًا. وحَبَّذا لو غرسَ فيها مِنَ الأَشجارِ المُثمِرَةِ شَيئًا، ومِنَ الورْدِ شيئًا. لتَظلَّ هذهِ الحديقَةُ رابِطًا مُقَدَّسًا بينَ الإنسانِ وبينَ تُرابِ الوطَنِ بعدَ أَنْ هَجَرْنا الأَرضَ – بِغالِبِيَتنا – وأَعطينا المَناجِلَ والمَعاوِلَ إِجازَةً طَويلَةَ الأَمَدِ. تمُرُّ على الإنسانِ أَوقاتٌ يرى فيها التُّرابَ أَغلى مِنَ الذَّهبِ كما تقولُ الأُغنِيَّةُ الشَّعبِيَّةُ؛ فَكمْ من مُهَجَّري شَعْبِنا حَملوا مَعَهُم حُفَنًا من ترابِ الوطنِ جَعَلوها حِرْزًا وعَهْدًا وأَمَلًا بالعَودَةِ.

هذهِ الجدَلِيَّةُ الأَبدِيَّةُ المقدَّسَةُ ستظَلُّ الشُّغلَ الشّاغِلَ عِنْدَ مَنْ حَرَثَ الأَرضَ وزَرَعَها، وتَعامَلَ مَعها مُعامَلَةَ العاشِقِ لِمَعْشوقِهِ؛ كيفَ لا وقَدْ تمازَجَ عَرَقُهُ بِتُرابِها صَيفًا، وتَطَهَّرَتْ قَدَماهُ بِوُحولِها شِتاءً. لا شَكَّ في أَنَّ الأَجيالَ القادِمَةَ سَتَحمِلُ عَنَّا حُبَّ الوطَنِ وافتِداءَهُ بأَرواحِهِم، ولكنْ يَظَلُّ عِندَهُم مَفْهومًا لا واقِعًا مَعيشًا وحَياتُهم مُحاطَةٌ بالإسْفِلتِ والباطونِ مِمّا أَبْعَدَهم عنِ التُّرابِ، وحتّى الجُلوسِ علَيهِ- بَلْهَ العمَلَ فيهِ

–

بَعيدًا عنِ الإسهابِ والإطنابِ يَظَلُّ السّؤالُ الصَّعبُ مَطروحًا.. هل يمُكِنُ احتِلالُ أَرضٍ؟ نَعَمْ! هل يمُكِنُ اغتِصابُ وطنٍ؟ لا؛ وإنْ حَدَثَ سَيظَلُّ المُغتَصِبُ قَلِقًا خائِفًا لا بل مَرْعوبًا لِأَنَّ صاحِبَ الحَقِّ هو الأَقوى وإن كانَ ضَعيفًا.. فَلْيَهنَأْ كُلُّ إنسانٍ بِوطَنِهِ، ولْيَخْجَلْ هذا العالَمُ من طِفْلٍ لا يَرى وطَنَهُ إلّا من بَعيدٍ..

السَّاعَةُ..

أَنا لا أَقصِدُ السّاعةَ الآلةَ وإنَّما السّاعةُ الّتي تُساوي سِتّينَ دَقيقةً، وبِفعلِ تراكُمِ الدَّقائِقِ تُصبِحُ أَيّامًا فَأَسابيعَ فشُهورًا فَسِنينَ فقُرونًا.. في هذا التَّراكُمِ الَّذي هو الزَّمَنُ تمُرُّ أَحداثٌ تَتْلوها أَحداثٌ، مِنها ما يَخْدُمُ البَشَرِيَّةَ، ومِنها ما كانَ لَعْنَةً عَليها.. هذا الزَّمَنُ أَصبَحَ عِلمًا اسمُهُ التّاريخُ؛ وعُمْرُ الإنسانِ من هذا التّاريخِ مهما طالَ، قد يكونُ جُزْءًا من جُزْءٍ من ثانيَةٍ من هذا التَّراكُمِ الزَّمَنيِّ، معَ أَنَّنا نراهُ في لا وَعْيِنا طَويلًا!

السّاعةُ إذًا سِتونَ دقيقةً، وهذا في رَأْيِنا تَعريفٌ مَجازيٌّ، فقد تطولُ الساعَةُ أو تقصُرُ، ذلكَ بحسَبِ حالَةِ الإنسانِ النَّفْسيَّةِ؛ فالحزينُ مَثَلًا تمُرُّ السّاعَةُ عليهِ كَأَنَّها دَهْرٌ، وأَمّا السَّعيدُ فتَمُرُّ عليهِ مَرَّ الثّانِيَةِ.. وأَكثرُ من ذلكَ فساعةُ العاملِ البَسيطِ جُهدٌ وعرقٌ، محروقٌ صَيفًا مجلودٌ شِتاءً بأَجْرٍ زهيدٍ؛ وساعةُ صاحِبِ العملِ راحَةٌ في غُرَفٍ مُكَيَّفَةٍ، وأَرباحٌ بالملايينِ.. وأَمّا ساعَةُ العاطِلِ عنِ العملِ فهيَ إحساسٌ قاتِلٌ بالفشَلِ والدّونِيَّةِ مِمّا يزيدُ من قَناعَتي بأَنَّ البِطالَةَ نَهجٌ مقصودٌ في دُوَلِ رأْسِ المالِ هدفُهُ إِذلالُ الإنسانِ ليظَلَّ بحاجَةٍ إِلى صاحِبِ العمَلِ

طالِبًا رِضاهُ صابِرًا حالِمًا بِغَدٍ تسودُهُ العدالَةُ الاجتِماعِيَّةُ..
ومَهما أَطَلْنا أَو أَوجَزْنا في طرْحِنا سَتَظَلُّ أَجَمَلُ السّاعاتِ
ساعَةٌ نكونُ فيها سُعداءَ.

أَنَا واقِعِيٌّ..

عِنْدَما نَسْمَعُ كَلِمَةَ (واقِعِيَّة) يَحْمِلُنا التَّفْكيرُ إِلى الواقِعِيَّةِ في الأَدَبِ كَمَدْرَسَةٍ مِنْ مَدارِسِهِ الهامَّةِ. ولكِنِّي هُنا أَقْصِدُ واقِعَ الحَياةِ الَّتِي نَعيشُها؛ وجَعْلَهُ نَهْجًا حَياتِيًّا. وقَدْ أَكونُ قَدْ حَشَرْتُ نَفْسِي في حَقْلٍ قَدْ يَكونُ السَّيرُ فيهِ شائِكًا، هذا إِذا سَلَكْنا فيهِ المَسْلَكَ الفَلْسَفِيَّ؛ وقَدْ يَكونُ مُعْشِبًا إِذا سَلَكْنا فيهِ المَسْلَكَ الفِطْرِيَّ، أَي أَنْ نَنْظُرَ إِليهِ نَظْرَةَ الإِنْسانِ العادِيِّ الَّذي لَيسَ مِنْ عادَتِهِ الغَوصُ عَميقًا في البَحْرِ لِيَتَعَرَّفَ على بَعْضِ صِفاتِهِ، بَلْ يَكْتَفي بِالجُلوسِ على الرَّمْلِ لِيَعْرِفَ أَنَّ البَحْرَ ماءٌ يُلامِسُ اليابِسَةَ.

فَإِذا قالَ قائِلٌ: أَنا رَجُلٌ واقِعِيٌّ نَفْهَمُ أَنَّهُ يَعيشُ أَيّامَهُ كَما يَرْسُمُها عَقْلُهُ، لا كَما تَرْسُمُها أَوهامُهُ فَتُضَخِّمُ لَهُ قُدُراتِهِ، وتَتْرُكُهُ يَعيشُ في غُرْبَةٍ عَنْ نَفْسِهِ. الصِّدْقُ مَعَ النَّفْسِ حَجَرُ الأَساسِ في حَياتِنا البَعيدَةِ عَنْ الأَوهامِ الَّتي كَثيرًا ما تَجِدُ لَها مَسْرَبًا تَلِجُ مِنْهُ إِلى نُفوسِنا فَتُفْسِدُ عَلَينا لَذَةَ الحَياةِ.

قيلَ: رَأَى كُرْكِيٌّ (طائِرٌ مائِيٌّ لا يَقْدِرُ عَلى التَّحْليقِ) صَقْرًا يُحَلِّقُ في الفَضاءِ، فَأَحَبَّ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَهُ، فَارْتَفَعَ قَليلًا ثُمَّ

سَقَطَ بِحَوضِ طينِ قَصّارٍ يَعْمَلُ هُناكَ؛ فَأَخْرَجَهُ القَصّارُ وقَدْ تَلَطَّخَ بِالطِّينِ وَوَضَعَهُ بِجانِبِهِ كَيَ يَجِفَّ. فَمَرَّ رَجُلٌ بِجانِبِ القَصّارِ، وعِنْدَما رأَى الكُرْكِيَّ سَأَلَهُ دَهِشًا: ما هذا؟ أَجابَهُ: إِنَّهُ كُرْكِيٌّ يَتَصَقَّرُ!

لِمَاذَا؟!

قالَتِ العَرَبُ: الشَّجاعَةُ في غَيرِ أَوقاتِها تَهَوُّرٌ، والخَوفُ في غَيرِ مَحَلِّهِ جُبْنٌ، والحَياءُ في غَيرِ مَوضِعِهِ ضَعْفٌ، والكَرَمُ مِنْ غَيرِ تَدْبيرٍ تَبْذيرٌ.. أَمّا أنا - والعِياذُ باللهِ من هذِهِ الأَنا! - أَقولُ: إِنَّ نَزْعَةَ الكَرَمِ عِنْدَنا قَدْ لَحِقَها سوءُ فَهْمٍ، وحَلَّ التَّبذيرُ مَحَلَّ التَّدْبيرِ.. فَإِذا قُلْتَ لِصَديقٍ مَثَلًا أُحِبُّ أَنْ أَجْلِسَ مَعَكَ على فِنْجانِ قَهوةٍ لِأَسْتَشيرَكَ في أَمرٍ، ويَكونُ اللِّقاءُ، تَجِدُ أَنَّ فِنْجانَ القَهوةِ أَصْبَحَ ثانَوِيًّا بِجانِبِ أَطباقِ الفاكِهَةِ والحَلوى والمُكَسَّراتِ... ولِلْحَقيقَةِ الصِّرْفِ أَقولُ: ليسَ هذا كَرَمًا! لا ولا حُسْنَ استِقبالٍ أَو ضِيافَةٍ خاصَّةً وأَنَّ مَثَلَنا الشَّعْبِيَّ يُؤَكِّدُ على أَنْ (لاقيني ولا تْغَدّيني). والأَدْهى من ذَلكَ إِلْحاحُ المُضيفِ على الزّائِرِ أَنْ يَأْكُلَ، والأَكْلُ على قَدْرِ المَحَبَّةِ! غَيرَ مُتَسامِحٍ حَتّى معَ الّذينَ يُعانونَ من مَرَضِ السُّكَّرِ اللَّعينِ، والنّتيجَةُ أَنْ يُعاني مَريضُ السُّكَّرِ ذاكَ النَّهارِ، هذا إِذا لَمْ يُنْقَلْ إِلى المُستَشْفى لِلْعِلاجِ.

أَسْئِلَةٌ كَثيرَةٌ قَدْ تُطْرَحُ في هذا المَقامِ.. لِماذا لا يَكونُ ما يُقَدَّمُ مِنَ الضِّيافَةِ اخْتِيارًا لا فَرْضًا؟ وما الضَّيرُ في أَن نَسْأَلَ

الضَّيفَ عَمّا يُريدُ قَبْلَ إِعدادِ الضِّيافَةِ؟ وإِذا سُئِلَ الضَّيفُ، جَدَلًا، فلِماذا لا تَكونُ إِجاباتُهُ قاطِعَةً: إِمّا نَعَم أَو لا.. ثُمَّ لِماذا لا يَكونُ الحَديثُ هو الجانِبُ الأَهَمُّ في الجَلسَةِ وعِنْدَها لا بَأْسَ بِفِنْجانِ قَهوَةٍ أَو بكوبِ شايٍ أَو حَتّى بِكَأْسِ ماءٍ بارِدٍ!؟

آدابُ الحَديثِ..

قالَ أَحَدُ الحُكَماءِ: يا بُنَيَّ إذا أَعجَبَكَ الكَلامُ فاصْمُتْ، وإذا أَعجَبَكَ الصَّمْتُ فتَكَلَّمْ! أَينَ نَحْنُ من هذهِ الحِكْمَةِ لِحَكيمٍ أَسقَطَتِ الأَيّامُ اسْمَهُ، وظَلَّتْ كَلِماتُهُ هادِيًا لَنا- هذا إذا تَهُمُّنا الهِدايَةُ! -

كانَ أَجدادُنا وآباؤُنا يُحسِنونَ، فيما يُحسِنونَ، آدابَ الحَديثِ؛ فَإذا تَحَدَّثَ أَحَدُهُم أَصغى لَهُ الآخَرونَ بِمَحَبَّةٍ واحْتِرامٍ ومِن دونِ مُقاطَعَةٍ مِنْ أَحَدٍ، فَإذا أَنْهى حَديثَهُ تَحَدَّثَ الآخَرُ.. يَفْعَلونَ ذلكَ لِإيمانِهِمْ بِأَنَّ لِلْحَديثِ أُصُولًا وَوَقْتًا، وأَنَّ لِلْإصغاءِ أُصُولًا وَوَقْتًا أَيضًا، ذاكَ لتَعُمَّ مَعْرِفَةُ العارِفينَ فَيَتَلَقَّفَها غيرُ العارِفِينَ بِاحترامٍ؛ وكانَ الحَديثُ أَكْثَرَ ما يكونُ في الفِلاحَةِ والرِّعايَةِ وشُؤُونِ القَريَةِ، وقَدْ يُعَرِّجونَ على سِياسَةِ تلكَ الأَيّامِ مِمّا يَسْمَعونَهُ منَ الّذينَ يَمْلِكونَ الرّاديوهاتِ، وهَؤُلاءِ قِلَّةٌ قليلَةٌ في القَريَةِ.

هَؤُلاءِ الآباءُ والأجدادُ الَّذينَ نَتَحَدَّثُ عَنْهُمُ اليومَ كَذِكرى عابِرةٍ، لمْ يَدْخُلُوا مَدارِسَ ولا جامِعاتٍ، ولكِنَّهُمْ فَاقُونا بِما عَلَّمَتْهُمْ تَجارِبُ الحَياةِ.. عَلَّمَتْهُمُ الصَّبْرَ واحْتِرامَ الآخَرِ

وجَلادَةَ الاستِماعِ إلى آراءِ الآخَرينَ بِدونِ مُقاطَعَةٍ أو تَشَنُّجٍ حَتّى وإنْ كانوا غَيرَ مُوافِقينَ على ما يَسْمَعونَ.

أَمّا نَحنُ فَعَصَبِيّونَ دائِمًا، ودائِمًا مُتَشَنِّجونَ! والّذينَ يَعْزُونَ ذلكَ إلى طَبيعَةِ حَياتِنا، وما حَمَلَتْهُ التِّكنولوجيا لَنا مِنْ تَعْقيداتٍ، فَهُمْ مُصيبونَ ومُخْطِئُونَ في آنٍ: مُصيبونَ بأَنَّ رُقْعَةَ الحُرِّيَّةِ الفَرْدِيَّةِ قدْ ضاقَتْ، ومُخْطِئُونَ بأَنَ القُدْرَةَ على مُواجَهَةِ الصِّعابِ قَد فَتَرَتْ؛ ناسينَ أَنَّ أَحَدَ تَعريفاتِ الذَّكاءِ هو التَّكَيُّفُ لِأَيِّ ظَرْفٍ كانَ..

مَطَر..

.... ومُنْذُ أَنْ كُنّا صِغارًا، كانَتِ السَّماءْ

تَغيمُ في الشِّتاءْ

ويَهْطِلُ المَطَرْ...

أَجَلْ! جَميلٌ ما قالَهُ شاعِرُنا العِراقيُّ الخالِدُ (السَّيّاب).. جَميلٌ أَنْ نَسْتَقْبِلَ سُقوطَ المَطَرِ بِفَرَحٍ غامِرٍ؛ خاصَّةً الأَوَّلَ مِنْهُ، والّذي سَمّاهُ أَجْدادُنا بِالوَسْمِيِّ لِأَنَّهُ يَسِمُ الأَرْضَ (أَي يُصيبُ وَجْهَ الأَرضِ فَيَحْسُنُ بِالعُشْبِ). سُقوطُ المَطَرِ على الأَرضِ لَيْسَ قَطَراتِ ماءٍ تَسْقُطُ فَقَطْ، إِنَّها انْتِظارٌ طَويلٌ واصْطِبارٌ أَطْوَلُ. هذا يَومَ كُنّا بِغالِبيَتِنا فَلّاحينَ نُعِدُّ الأَرْضَ لِتَرْتَوي بَعْدَ عَطَشٍ فَتَرُدَّ لَنا مِنَ الخَيرِ أَضْعافَ ما قَدَّمْنا لَها مِنْ عَرَقِ.

كانَ الفَلّاحُ لا يَرْتاحُ إِلّا بَعْدَ أَنْ يَرى المَطَرَ غَزيرًا والسَّيلَ عَرِمًا، فَيَقولَ مِنْ خِلالِ بَسْمَةٍ مُحَبَّبَةٍ: الحَمْدُ لِلهِ! الخَيرُ وَفيرٌ هذا العام.

ما أَجْمَلَ جَليلَنا بِشُموخِهِ وهوَ يَنْحَني مُسْتَقْبِلًا الغَيمَ والمَطَرَ،

ما أَذْكى رائِحَةَ تُرابِهِ بَعْدَ أَنْ يِرْتَوي، فَيُخْصِبَ عُشْبًا وزَهْرًا وعِشْقًا أَبَدِيًّا.. عَلَّمَنا، مِنْ غيرِ شَرْحِ أَساتِذَةٍ مُخْتَصّينَ، ما مَعْنى وَطَن.. أَهِيَ رومانْسيَّةٌ شُعَراء!؟ رُبمَّا.. وما العَيبُ في ذلِكَ؟ فَلْنُبْقِ إِذًا قَليلًا من هَذِهِ الرّومانْسِيَّةِ في حَياتِنا كي لا يَجْرِفَنا دَوَّارُ المادَّةِ إِلى أَعْماقِ أَعْماقِها. وعُذْرًا مِمَّنْ يَسْتَثْقِلونَ المَطَرَ في أَيّامِنا لِما يَرَونَ في سُقوطِهِ عائِقًا لَهُمْ في إِنْجازِ مُهِمَّةٍ أَو عَمَل..

الزَّمَنُ الرَّدِيءُ..

كَثيراً ما نَسْمَعُ مَنْ يَنْعَتُ زَمانَنا هَذا بالرَّديءِ وكأَنَّ هذا الزَّمنَ الّذي نَعيشُ فيهِ يَفوقُ الحِقَبَ السّالِفَةَ من تاريخِنا بِشِقَّيهِ المُضيءِ مِنْهُ والمُظْلِمِ على حَدٍّ سَواء..

مِسْكينٌ الزَّمَنُ الّذي أَصْبَحَ شَمّاعَةً نُعَلِّقُ عَليهِ قَبائِحَنا؛ فَإِذا قَتَلَ إِنْسانٌ إِنْسانًا آخَرَ قُلْنا أَيُّ زَمَنٍ رَديءٍ نَعيشُ فيهِ إِذْ أَصْبَحَتْ حَياةُ الإِنْسانِ لا تُساوي أَكْثَرَ من ثَمَنِ رَصاصَةٍ..

حينَ نُدْرِكُ أَنَّ الصِّراعَ بَينَ البَشَرِ- بَلْهَ الدُّوَلَ – إِمَّا أَنْ يَكونَ على السُّلْطَةِ الَّتي تُوصِلُ الرّابِحَ في الصِّراعِ إِلى المالِ، وإِمّا على المالِ المُوصِلِ إِلى السُّلْطَةِ؛ بَدَأَ هذا بِانْتِهاءِ المَشاعِيَّةِ البِدائِيَّةِ ولا يَزالُ سائِدًا الى يَومِنا الَّذي نَصِفُهُ ظُلْمًا، بالزَّمَنِ الرَّديءِ؛ ومِنْ هُنا جاءَ العِداءُ الشَّديدُ لِلْفِكْرِ الماركِسِيِّ، وهذا بَحْثٌ آخَرُ.

أَقولُ حينَ نُدْرِكُ كُنْهَ هذا الصِّراعِ لا يَصْعُبُ عِنْدَها أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ الخَلَلَ فينا – نَحْنُ البَشَرَ – ولَيسَ في الزَّمَنِ، وأَنَّ غَريزَةَ التَّمَلُّكِ في كُلٍّ مِنَّا قدِ اسْتَشْرَتْ ومَسَحَتْ كُلَّ ما حَفِظْناهُ مِمَّا جاءَتْ وأَوصَتْ بِهِ الكُتُبُ السَّماوِيَّةُ، والحُكَماءُ، على مَرِّ

العُصورِ من آياتٍ ومَقولاتٍ مِنَ المَفْروضِ أَنْ تَحْمِيَ الإِنْسانَ مِنْ ظُلْمِ أَخيهِ الإِنْسانِ.

أَيُّ كَلامٍ أَجْمَلُ مِمَّا جاءَ في الحَديثِ الشَّريفِ: أَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّهُ لِنَفْسِكَ... أَو ما جاءَ في إِنْجيلِ لوقا (6) – بَعيدًا عَنِ المُبالَغَةِ المَقْصودَةِ – أَحْسِنُوا الى مُبْغِضيكُمْ .... وصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذينَ يُسيئُونَ إِلَيكُمْ...إِنَّ الخُطاةَ أَيضًا يُحِبُّونَ الَّذينَ يُحِبُّونَهُم....

عَلَيَّ مَشَقَّةُ الكِتابَةِ، وعَلَيكُمْ مَشَقَّةُ التَّأَمُّلِ!

مُفارَقَةٌ!

على مَشارِفِ مَدينَةِ القُدْسِ، أَو قَبْلَها بِقَليلٍ، نَظَرَ إِليَّ سائِقُ سَيَّارَةِ الأُجْرَةِ، وكُنْتُ جالِسًا بِجانِبِهِ، وكُنّا أَثْناءَها نمرُّ تَحْتَ جِسْرٍ يُوصِلُ جَبَلَينِ. قالَ: أَتَدْرِي ما وَظِيفَةُ هَذا الجِسْرِ؟ أَجَبْتُ: لا! قالَ: أُقِيمَ لِيَكونَ مَعْبَرًا آمِنًا لِلْحَيَواناتِ كَيَ تَتَنَقَّلَ بِحُرِّيَّةٍ بَينَ الجَبَلَينِ، فَيُجَنِّبَها قَطْعَ الشَّارِعِ والتَّعَرُّضَ لِلْدَّهْسِ. قُلْتُ: إِنَّهُ لَعَمَلٌ إِنْسانيٌّ كَبيرٌ يَجْلُبُ المَديحَ والشُّكْرَ لِلْقائِمينَ عَلَيهِ.

صَمَتَ السّائِقُ، ورُحْتُ أَنا أُسَبِّحُ الخالِقَ في نَفْسِي على أَنْ أَنْزَلَ الرَّحْمَةَ في قُلُوبِ البَشَرِ.. ولكِنَّني وأَنا في هَذِهِ الحالَةِ مِنَ التَّجَلِّي تَساءَلْتُ: ما نَوعُ هَذِهِ الدَّولَةِ الَّتي نَعيشُ فيها!؟ كَيفَ يُمْكِنُ لِمُؤَسَّساتِها أَنْ تَبْنِيَ بِيَدٍ وفي ذاتِ اللَّحْظَةِ نَراها تَهْدِمُ بِاليَدِ الأُخْرى؟! كَيفَ يُمْكِنُ لِهَذِهِ المُؤَسَّساتِ أَنْ تَفيضَ حَنانًا ورَحْمَةً على الحَيَوانِ، فَتَبْنيَ لَهُ جِسْرًا حِفاظًا على حَياتِهِ؛ ومِنْ جِهَةٍ أُخْرى تَهْدِمُ بُيوتًا عامِرَةً على رُؤُوسِ ساكِنيها مِنْ أَطْفالٍ وشُيوخٍ ونِساءٍ بِحُجَّةِ أَنَّ البِناءَ بِدونِ تَرْخيصٍ؟!

لَنْ أَدْخُلَ في دَهاليزِ السِّياسَةِ ومَتاهاتِها المُظْلِمَةِ، ولا بِإِضاعَةِ

الوَقْتِ في إِيجادِ الحُلولِ والعَمَلِ على تَوفيرِ الحَياةِ الكَريمَةِ لِلإِنْسانِ وَلِلْحَيَوانِ الَّذي لَهُ الحَقُّ أَيضًا في أَنْ يَعيشَ بِأَمانٍ. فالحُلولُ مَوجودَةٌ، ولِكِنَّ قلوبَ المَسْؤُولينَ قَدْ أَوصَدَتْ أَبْوابَهَا وحَتّى نَوافِذَهَا تِجاهَنا – نَحْنُ العَرَبَ – إِلى مَتى؟ إِلى أَنْ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كانَ مَفْعولا!!

العَيبُ فينا لا في الحَياةِ!

قد نسمعُ أَحَدَهُم يلعَنُ الدُّنيا ويسبُّ الحياةَ، وكثيرًا ما يكونُ ذلكَ بَعدَ فَشَلٍ أَو خيبَةِ أَمَلٍ.. ليسَ غريبًا أَنْ يَحدُثَ هذا إِنْ جاءَ على شكلِ نَوبَةِ غَضَبٍ، ولكنَّ الغريبَ أَن يتَكرَّرَ هذا الغضَبُ فَيُصبِحَ حالَةً عُصابِيَّةً قد تَجعلُ الحياةَ عِبْئًا ثقيلًا.. لقدْ صدقَ الشّاعرُ اللّبنانيُّ المَهْجَريِّ إيليّا أَبو ماضي حينَ قالَ في قصيدَتِهِ (فلسَفَةُ الحياةِ):

هو عِبْءٌ على الحياةِ ثقيلٌ

مَنْ يظُنُّ الحياةَ عِبْئًا ثَقيلا

لكنْ رُبَّ مُعْتَرِضٍ يقولُ: إنَّ أَبا العلاءِ المَعَرِّيَّ لهُ رَأْيٌ مُغايرٌ حينَ يقولُ في قَصيدَتِهِ (ضَجْعَةُ الموتِ رَقْدَةٌ):

تَعَبٌ كُلُّها الحياةُ فما أَعْجَبُ،

إلّا من راغِبٍ في ازدِيادِ

لو أَخَذْنا من تجرِبَةِ إيليّا أَبي ماضي شَيئًا، ومن فلسَفَةِ أَبي العَلاءِ شَيئًا لَوَجَدْنا أَنَّ الحياةَ هِيَ هِيَ منذُ وُجِدَ الإنسانُ على هذِهِ الأَرضِ.. إِنَّها خَلطَةٌ عَجيبَةٌ مِنَ الحَلاوَةِ والمَرارَةِ؛ نُحِسُّ

بِحَلاوتِها ونَحنُ سُعَداءَ، ونُحِسُّ بمِرارَتِها ونحنُ حَزانى، ولكُلٍّ مِنَ الحالَتَينِ أَسبابُها، فَالعاقِلُ مِنّا إِذًا، هو ذاكَ الّذي يَتَقَبَّلُ أَسبابَ التَّعاسَةِ تمَامًا كما يَتَقَبَّلُ أَسبابَ السَّعادَةِ لِنَظَلَّ على وِئامٍ معها.. أَمّا إذا بَحَثْنا عن هذهِ الأَسبابِ نَجِدُ أَنَّ لا دّخلَ لِلحَياةِ فيها، بَلْ ثَلاثَةُ أَرباعِها آتٍ مِمّا يَفْعَلُهُ القَوِيُّ بالضَّعيفِ..... مِمَّا يَفْعَلُهُ الإنسانُ (بِأَخيهِ) الإنْسان!

المَغْمُورونَ..

المَغْمورونَ – وهذا اجتِهادٌ شَخْصِيٌّ – هُمْ أُولَئِكَ الَّذينَ عاشُوا بِصَمْتٍ، وكَرَّسُوا حَيَواتِهِمْ في خِدْمَةِ البَشَرِيَّةِ بِصَمْتٍ، ثُمَّ ماتُوا بِصَمْتٍ تَارِكِينَ بَصَماتِهِمْ على ما قَدَّموهُ مِنْ خَدَماتٍ مِنْ دونِ أَنْ يُطالِبُوا بِحَقِّ اعْترافٍ بِما وَصَلُوا إِلَيهِ في أَبْحاثِهِمْ وتَجارِبِهِمْ؛ فَجاءَ بَعْدَهُمْ مَنْ أَكْمَلَ البَحْثَ مِنْ حَيثُ انْتَهَوا وتَوَصَّلَ إِلى النَّتيجَةِ الَّتي كانُوا يَرْجُونَها فَسُجِّلَتْ بَراءَةُ الاخْتِراعِ على اسْمِهِ. هَذا شَأْنُ كُلِّ مُنْتَجٍ أَوجَدَتْهُ التِّكْنولوجيا مِنْ أَجْلِ إِسْعادِ البَشَرِيَّةِ بِمَجْهودِ عُلَماءَ ومُخْتَرِعينَ غابُوا أَو غُيِّبُوا إِلَّا آخِرَهُمْ الَّذي نَجَحَ في تَحْقيقِ الهَدَفِ المَنْشودِ؛ فَقَطَفَ الثَّمَرَةَ اليانِعَةَ الَّتي هي الشُّهرَةُ في هذا السِّياقِ، وأَكَلَها لِوَحْدِهِ.

وكي لا نَتْرُكَ الفائِدَةَ العِلْمِيَّةَ مَنْقوصَةً يَجِبُ أَنْ نُؤَكِّدَ على أَنَّ التَّطَوُّرَ والتَّقَدُّمَ في حَياتِنا هُما بِفَضْلِ نَشاطِ البَشَرِيَّةِ جَمْعاءَ لا بِفَضْلِ شَخصٍ أَو أَشْخاصٍ مُعَيَّنينَ.. فَإِذا سَأَلْنا شَخْصًا ما مَنْ صَنَعَ لَكَ هَذِهِ الطّاوِلَةَ الجَميلَةَ؟ أَجابَكَ على الفَورِ، إِنَّها مِنْ صُنْعِ النَّجّارِ الفُلانيِّ.. إِجابَةٌ تِلْقائِيَّةٌ وكَفى!

وَمِنْ دونِ أَنْ نَسْترسِلَ في سِلْسِلَةٍ مِنَ الأَسْئِلَةِ كَأَنْ نَسْأَلَ مِنْ أَينَ لِلنَّجارِ بالخَشَبِ؟ ومَنْ أَحْضَرَهُ إِلى المَخازِنِ؟ وَمَنْ قَطَعَهُ؟ وبِماذا قُطِعَ؟ ومِنْ أَينَ آلَةُ القَطْعِ؟ ومِمّا تُصْنَعُ؟ ومِنْ أَينَ جاءَتْ الموادُّ الخامُ؟! أَسْئِلَةٌ تَنْتَهي لِتَعودَ على نَفْسِها لِتُؤَكِّدَ مَقولَتَنا السَّابِقَةَ وهي بِأَنَّ اليَدَ المُباشِرَةَ الَّتي صَنَعَتِ الطَّاوِلَةَ هي يَدُ النَّجّارِ الفُلانيِّ؛ ولكِنْ هُناكَ آلافُ الأَيدي المُبارَكَةِ قَدْ شارَكَتْ في صُنْعِها!

سَلامٌ على يَدٍ كَرَّسَتْ جُهْدَها لِخِدْمَةِ البَشَرِيَّةِ.

لِمَ الشَّكْلُ!

حينَ قَرَّرْتُ أَنْ أَكْتُبَ مَقالَتِي الأُسْبوعِيَّةَ في هَذِهِ الزّاوِيَةِ (صَباحُ الخَيرِ / الاتِّحاد) مُشَكَّلَةً لَمْ يَكُنْ مِنْ بابِ عَرْضِ (العَضَلاتِ) في مَعْرِفَةِ خَفايا اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الصَّعْبَةِ المِراسِ، أَو التَّباهِي بِإِجادَةِ اسْتِعْمالِها بَلْ لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُسَهِّلَ على الشَّريحَةِ الأَوسَعِ مِنَ القُرّاءِ الأَعِزّاءِ القِراءَةَ السَّليمَةَ وأَنْ أُوقِظَ ذائِقَتَهُمْ لِيَسْتَشعِرُوا جَمالَ لُغَتِنا؛ فَهِيَ أَجْمَلُ مُشَكَّلَةً: شَكْلًا وجَرْسًا.

والأَهَمُّ مِنْ ذلِكَ إِنْعاشُ ذاكِرَةِ القارِئِ الكَرِيمِ بِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ تَرْتَكِزُ على رَكيزَتَينِ هامَّتَينِ: النَّحْوِ والصَّرْفِ. وبِاعْتِقادِي إِنَّ الصَّرْفَ أَكْثَرُ ضَرورَةً لِلْقارِئِ كَيَ يَفْهَمَ المَقْصودَ مِنِ الكَلِمَةِ.. فَحينَ نَقْصِدُ حَرْفَ العَطْفِ في (ثم) تَكونُ (ثُمَّ – مَضْمومَةُ الثّاءِ) أَمَّا إِذا قَصَدْنا أَنْ تَحْمِلَ مَعْنى (هُناكَ) تَكونُ (ثَمَّ – مَفْتوحَةُ الثّاءِ) وَهْوَ اسمٌ يُشارُ بِهِ الى البَعيدِ، والأَمْثِلَةُ لا تُعُدُّ ولا تُحْصَى! ولِذا فَإِنِّي أُقَدِّمُ اعْتِذاري لِلصَّوتِ الَّذي يُنادِي بِأَنْ لا حاجَةَ لِلشَّكْلِ إِلّا عِنْدَ الضَّرورَةِ وسَأُصْغي لِلْأَصْواتِ الَّتِي تَسْتَحْسِنُ الكَلامَ مَشْكولًا.

رِحِمَ اللهُ أَساتِذَتَنا فَقَدْ كانَتْ مُتْعَتُهُمْ في البَحْثِ والتَّنْقيبِ في اللُّغَةِ، والقِراءَةِ السَّليمَةِ – ولَنْ تَكونَ هذِهِ إلّا بِضَبْطِ الشَّكْلِ- فَوَرِثْنا عَنْهُمْ حُبَّ اللُّغَةِ وإتْقانَها، لَيسَ نَحْوًا فَقَطْ بَلْ وصَرْفًا أَيضًا..

أَوسَعتَهُم سَبًّا..

أَغارَ الحارثُ بنُ ورقاءَ من بَني أَسَد على إِبلِ زُهير بنُ أَبي سُلمى (وهو من أَصحابِ المُعلَّقاتِ ومن ساداتِ العربِ)، فذهبَ بها وبراعيها، فجعلَ زُهير يهجوهُ ويسُبُّهُ ويتهدَّدُهُ هو وقَومُهُ وهم لا يكترِثونَ به .. فقالَ كعب (وهو ابنهُ وصاحبُ البردَةِ في مدح الرَّسول): أَوسَعْتَهم سَبًّا وأَودَوا بِإِبِلِكَ وأَضرُّوا بك. فأَطلَقَها مَثَلًا.

أَذكُرُ هذا المثَلَ لِما نَعيشُهُ اليومَ منَ العُنفِ وانعِدامِ التَّسامُحِ تَقريبًا. قد أَفهَمُ رَدَّ فِعلِ زُهير على أَنَّهُ ردٌّ حكيمٌ حاقِنٌ للدِّماءِ؛ يُشَجِّعُني بِهذا الاجتهادِ أَنَّهُ الشّاعِرُ الكبيرُ، وصاحِبُ الاسمِ الشَّهيرِ بينَ قبائِلِ العربِ، والمُكثِرُ في شِعرِه منَ الحِكَمِ، فلِمَ لا يكونُ بعقلِهِ الرّاجِحِ قد غَلَّبَ التّسامُحَ على الأَخذِ بالثَّأْرِ، بينما فهمَ الأَمرَ ابْنُهُ كعب (الشّابُّ) على أَنَّهُ عارٌ على والِدِهِ.

قد نَجِدُ العُذْرَ لِكَعب إِذا أَخَذَتْهُ الحَمِيَّةُ القبلِيَّةُ وهو ابنُ بيئَةٍ شِعارُها- أَنا من غزِيَّةَ إِنْ غزَتْ... ولكنْ ما عذرُنا نحنُ أَبناءَ القرنِ الواحدِ والعشرينَ المُدَّعينَ بِوعيِنا ورُقِيِّنا وقَد أَصبحَ الحِوارُ بينَنا بالرَّصاصِ والسَّكاكين! ناسينَ أَو مُتناسينَ تلكَ

السِّعلاءَ المُتربِّصةَ بنا... لستُ واعِظًا، ولن أَكونَ، ولكِنَّني واحدٌ من أَبناءِ هذا الشَّعبِ المُعلَّقِ على خَشَبة!

أَيَّامُنا وأَيَّامُهُمْ..

في مَقالَةٍ سابقَةٍ ذكرتُ المُرقِّشَ الأَكبرَ على أَنَّهُ من عُشّاقِ العربِ الّذينَ قرأْنا عنهُم وفي طَليعَتِهم قيسُ بن المُلوَّحِ (مجنون ليلى) وعَنْتَرَةُ وجَميل بُثينة وكُثيِّرٌ عَزَّةَ، وهناكَ أَيضًا قيسُ بنُ ذَريح وتَوبَةُ بنُ الحُمَيِّر والمُرَقِّشُ الأَصْغَرُ والقائمةُ طَويلةٌ....

قرأْتُ عن هؤلاءِ وأَنا في غايةِ الدَّهَشَةِ، إِذ كيفَ يمكنُ لِإنسانٍ أَنْ يموتَ عِشقًا عندما يُحرَمُ من لقاءِ الحبيبِ؟! حتّى إِنّ أَحدَهم قالَ:

وما عَجَبي مَوتُ المُحبّينَ في الهَوَى

ولكنْ بَقاءُ العاشِقينَ عَجيبُ

صاحبُ هذا البيتِ هو قتيلُ العِشقِ الشَاعرُ عُرْوَةُ بن حِزام؛ وحكايتُهُ أَنَّهُ أَحبَّ ابنةَ عَمّهِ، وقد كبِرا معًا برعايةِ عمّهِ بعدَ موتِ أَبيهِ، وطلَبَها للزَّواجِ، فغالَتْ أُمُّها في مَهْرِها، فرحلَ إِلى ابنِ عَمٍّ له في اليمن، فأَكرمَهُ وعادَ بالمَهرِ فوجدَ أُمَّها قد زوَّجتْها لِرجلٍ شاميٍّ غَنيٍّ، فلَحِقَ بها عُرْوَةُ وكانَ الزَّوجُ كَريمًا

معهُ لِما لمسَهُ من طَهارَةِ حُبِّهما؛ وبعدَ أَن ودَّعَها وانصرَفَ لم تطُلْ حياتُهُ وماتَ عِشقًا! وماتَتْ هي أَيضًا بعدَ أَنْ جاءَها خَبَرُ مَوتِهِ بِأَربعةِ أَيّام. (القصَّةُ بتصرُّفٍ وباختصار)

أَقولُ: هل نجدُ في أَيّامِنا مثلَ هذا العشقِ ومثلَ هذا العَفافِ ومثلَ هذا الإِكرامِ لِلْمَرأَةِ؟! أَم عندَنا المَلَلُ مِنها والبَحْثُ عن غَيرِها وتَعْنيفُها وضَربُها وحتّى ذَبحُها!!!

قد يَعْتَرِضُ قارِئٌ كَريمُ فيقولُ: أُولئكَ قِلَّةٌ. أَقولُ: القِلَّةُ في ظروفِنا، نحنُ العربَ في هذهِ البلادِ كُثْرةٌ..

أَنا والغِناءُ..

علاقَتي بالغِناءِ والاستماعِ إليهِ بمُتعَةٍ ليسَتْ جديدَةً، بل تعودُ إلى سَنَواتِ الخَمسينَ حيثُ كانَ في القريةِ راديوات تُعدُّ على أصابِعِ الكَفِّ الواحدة؛ فكُنّا بدَوافِعَ طِفليَّةٍ وطُفوليَّةٍ نقفُ تحتَ الشَّبابيكِ نسترقُ السَّمْعَ إلى أَغاني تلكَ الأَيّامِ بمُتْعةٍ، حتّى إنَّنا كُنّا نحفظُ بَعضَها ونُردِّدُهُ بطُرُقِنا الخاصَّة.

كَبرْنا... وقليلًا قليلًا تبلورَتْ عندي طقوسٌ خاصَّةٌ للِاستماعِ إلى الأَغاني والموسيقى.. فمثلًا يلذُّ لي سَماعَ فيروز في ساعاتِ الصَّباحِ لِتَنفتِحَ أَمامي كُلُّ أَبوابِ الأَمَلِ ولِيزْدادَ إِقبالي على الحياةِ.. وفي ساعاتِ المَساءِ واللَّيلِ يَروقُ لي الاستماعُ إلى أُم كلثوم خاصَّةً بأَغانيها القَديمَةِ/الجَديدةِ الّتي تجعلُني أُحلِّقُ في سماواتٍ لا هُمومَ فيها ولا شقاء.. هذا لا يعني أَنَّني لا أَستمِعُ لباقي المُغنّينَ- وما أَكثرَهم! – خاصَّةً لِلَّذينَ يختارونَ الكلِماتِ الجميلَةَ واللَّحْنَ الجميل.

وقَد أُفشي سِرًّا (رُبمَّا لا يَهُمُّ أَحَدًا!) أَنَّني أَثناءَ القِراءَةِ والكِتابةِ أَستمِعُ الى سِمفونيّاتٍ خالِدةٍ أَنتَجَتْها عقولُ وأحاسيسُ موسيقيّينَ عالَمِيّينَ خالِدين.

كانَ الغِناءُ ولا يزالُ غِذاءَ الرّوحِ، وأَلَذُّ ما فيهِ القصائِدُ الفَصيحةُ الموزونَةُ المُقفّاةُ لِأَنَّها واحِدةٌ من أَهمِّ الطُّرقِ في الحفاظِ على لُغَتِنا العربيَّة.

رُبَّ قارِئٍ كريمٍ يسأَلُ: ما شَأْني أَنا في ما تُحِبُّ وفي ما لا تُحِبُّ!؟ للسّائِلِ أَقولُ: إنّها وجُهاتُ نَظَرٍ نطْرحُها، وقَد نَتَبادَلُها، ولا ضَيرَ في ذلكَ...

عَنْ كَلِماتِ الأَغَانِي..

حينَ شَرَعَ أَبو الفرجِ الأَصفهاني بِإنجازِ مشروعِهِ الأَدبيِّ المعروفِ بِ (كتاب الأَغاني) لم يكنْ يدري بأَنَّ هذا المشروعَ سيستغرقُ خمسينَ عامًا حتّى تَمَّ إِنجازُهُ..

بَنَى المُؤَلِّفُ مادَّتهُ على مئةِ صوت (أُغنيَّة) كان قد اختارَها المُغنّي الشّهيرُ آنَذاكَ إِبراهيم الموصِلي بِطلبٍ منَ الخليفَةِ هارون الرَّشيد. هذهِ الأَصواتُ هي أَشعارٌ مختارَةٌ لِشُعراءٍ تمَّ تلحينُها وغِناؤُها. أَردتُ أَنْ أَقولَ، لم يَكُنْ سهلًا على المُغنّي اختيارُ الكلماتِ الّتي ستُلَحَّنُ وستُغنّى، وسيستمعُ إِليها ملايينُ النّاسِ. والسُّؤالُ المشروعُ حقًّا، أَينَ نحنُ اليومَ من هذا؛ ثُمَّ ما هذا الكلامُ الّذي نسمعُهُ طوالَ اليومِ!؟ لقد فَتَحْنا عيونَنا وتدرَّبتْ آذانُنا على صوتِ فيروز وهي تُغنّي من كلماتِ وأَلحانِ الطيِّبِ الذّكرِ زكي ناصيف:

من يوم تغرّبنا وقلبي يلم جراح

يا ريتا بتخلص هالغربه تا قلبي يرتاح

هذا نَموذجٌ متَواضِعٌ من مئاتِ الأَغاني الّتي كانتْ سائدةً آنذاكَ؛

أَغانٍ دَخَلَتْ قلوبَنا وعقولَنا مُحمَّلَةً بالحُبِّ والأَلمِ والأَملِ، إِلى جانِبِ ما تحملُهُ من حُبٍّ صادقٍ ومن وفاءٍ للحَبيبِ.

وعندما لَحَّنَ بليغ حمدي كلماتِ عبد الوهّاب محمد وغنَّتْها ام كلثوم والّتي منها:

انتَ فين والحبّ فينْ

ظلمه ليه ديمًا معاكْ

ده انتَ لو حبّيت يومينْ

كان هواك خلّاك ملاكْ

هذهِ المُبالَغةُ المُحبَّبَةُ تقولُ: أَحِبُّوا بصِدقٍ لا بِرغبَةٍ تنطفئُ بعدَ تَحقيقِها.. أَحَبِّوا فَإِنَّ الحبَ يُلَيِّنُ القلوبَ ويجعلُ التّخاطُبَ بَينَنا بالكلِمَةِ لا بِالسِّكِّين..

الزَّمَنُ الجَميلُ!

انتشرَتْ مَقولةُ (الزَّمَنُ الجميل) في السَّنواتِ القليلَةِ الماضِيةِ انتشارَ النَّارِ في الهشيمِ، وإذ لم يبقَ هشيمٌ في حقولِنا المُصادَرَةِ، لِنَقُلْ إذًا، انتشارُ هَوَسِ المطربِاتِ والمُمَثِّلاتِ بعياداتِ أَطبّاءِ التَّجميل.

لا أَدري أَوَّلَ مَنْ أَطلقَ هذهِ التَّسْمِيَةَ على أَغانٍ كتَبَ كلماتِها شُعراءٌ مُبدِعونَ، ولحَّنَها مُلَحِّنونَ عَباقِرةٌ، وغنّاها مُغنّونَ ومُغنِّياتٌ كُلٌّ تَفرَّدَ بصوتٍ يدخُلُ القلوبَ قبْلَ الآذانِ، ولا أَنسى العازِفينَ الأَفذاذَ الّذينَ شَكَّلوا فِرقةً مُتَناغِمةً لا تُحسنُ العزْفَ فقطْ بل تسحرُ السّامِعينَ بِأَدائِها؛ أَقولُ نَتَجَ عن كُلِّ هذا الغناءُ الجميلُ بعيدًا عن كَونِ الزَّمَنِ جَميلاً أَم قَبيحًا.. هذهِ الأَغاني أَعانَتْ أَجدادَنا وآباءَنا على انتِزاعِ سُوَيعاتٍ قليلةٍ جميلَةٍ من زَمَنٍ رَزَحوا فيهِ تحتَ استعمارٍ سياسِيٍّ واقتصاديٍّ، ومن ثَمَّ تحتَ(جمهوريّاتٍ) قَمعيَّةٍ قاهِرةٍ لا زالَ قهرُها مُمتَدًّا حتّى يومنا هذا.

الأُغْنِيَّةُ الجميلَةُ لا تَصْنَعُ لوحدِها زَمَنًا جميلًا، إنَّها بِحالِنا- نحنُ العربَ – ترفَعُ عن كواهِلِنا بَعضَ ثِقْلٍ، ومن قلوبِنا

بعضَ هَمٍّ كي لا نَقتُلَ الأَمَلَ بانتِظارِ الأَغانيِّ الجميلةِ في الزَّمَنِ الجميل.

آفَةٌ مُسْتَحْدَثَةٌ..

آفاتُنا الاجتماعيّةُ السّائِدةُ والسّائِرَةُ مع الزَّمَنِ كثيرَةٌ، أَخطَرُها الكذِبُ والتَّمَلُّقُ والنَّميمَةُ ... خَطرُها بِما تحمِلُهُ من عواقبَ وخيمَةٍ. وآفتُنا هنا ليسَتْ مُسيئَةً كالكذِبِ مثلًا ولكنَّها تُساهِمُ في خلقِ مُجتَمَعٍ تعُمُّهُ الفوضى.. فبِقُدرةِ قادِرٍ أَصبَحَ الواحدُ مِنّا عالِمًا علّامَةً بِكُلِّ علمٍ وبكُلِّ فنٍّ؛ وليتَ هذا الأَمرَ حاصِلٌ بسببِ الدِّراسَةِ والمُطالَعةِ ولكنَّهُ حاصلٌ - وهذا اجتهادٌ شخصيٌّ – بسببِ عَدَمِ الرّجوعِ إلى مَصادرِ الثّقافَةِ الأُولى أَلَا وهيَ الكُتُبُ، وبسَببِ استعمالِ الميديا الحديثَةِ الخاطِئِ إذ نكتَفي منها بالسّطحيِّ بِالرُّغْمِ مِمّا تكتنِزُهُ من معلوماتٍ قيّمةٍ. فإذا شاهدنا لقاءً تِلفِزْيونِيًّا مع طبيبٍ يتحدَّثُ عن عِلَةٍ ما يعتقدُ البعضُ مِنّا أَنَّهُ يفقَهُ في الطِّبِّ مِثْلَهُ! ولا عجبَ أَنْ ترى طبيبًا مَثَلًا، حاضرًا في مَجلِسٍ ما وجميعُ مَنْ في المجلِسِ يتحدَّثونَ عنِ الأَمراضِ ومُسَبِّباتِها وعِلاجِها وهوَ صامتٌ لا بلْ لا يُعيرونَهُ أَدنى اهتِمامٍ.. وهذا يحدثُ معَ المُحامي ومَعَ المُهندِسِ ومعَ أَساتِذَةِ الجامعاتِ.... جميلٌ أَنْ نعرفَ ما يدورُ حولَنا من تطوُّرٍ ثقافيٍّ ومَعرِفيٍّ.. جميلَةٌ هذهِ النَّهضَةُ في التَّثقيفِ الذّاتيِّ، ولكنِ الأَجملُ من ذلكَ أَنْ

نتواضَعَ قليلًا فيسْأَلَ غيرُ العارفِ منّا العارفَ بينَنا كما كانَ يفعلُ أَجدادُنا وآباؤُنا وأُمَّهاتُنا.. لِنَحترَمْ مُثَقَّفينا على اختلافِ مجالاتِهِم العلميَّةِ، لا بلْ لِنَحترَمْ بَعضَنا بَعضًا.. فإذا سادَ الاحترامُ ازدادَتِ المَحبَّةُ وسادَتْ، وعندَها لا حاجَةَ لِلبَحثِ عن مدينَةٍ فاضِلةٍ.

تِلْكَ فَوقَ الرِّجَال!

أَدَّعي أَنَّني واحدٌ من أَكثرِ مَنْ يُتابعونَ ما تَنْشُر أَديباتُنا الفاضلاتُ من شعرٍ وقَصٍّ وخواطرَ ومقالاتٍ في جريدة الاتّحاد، بغضِّ النَّظَرِ عن التَّفاوتِ الإبداعي بينَ هذهِ أَو تلك. ومقالتي هذِهِ هي كلماتُ قارئٍ عادِيٍّ أَحَبَّ أن يُقدِّمَ كلمةَ شُكرٍ لكاتِباتٍ ساهَمْنَ في رَفْعِ شأْنِ حركتِنا الأَدَبيَّةِ. فحينَ تقرأُ لإحداهنَّ تُحسُّ بتلكَ القُدْرَةِ عندَهُنَّ وتتساءَلُ كيفَ ومتى وجَدْنَ الوقتَ الكافي لِلكِتابَةِ وهنَّ مُوزّعاتٌ ما بينَ الالتزاماتِ الاجتماعيّةِ والعملِ في البيتِ وخارِجِهِ! إِنَّهُنَّ لَسْنَ مُتفرِّغاتٍ للعملِ الإبداعِيِّ كما هو الحالُ في المُجْتَمَعاتِ السَّابِقَةِ ثَقافَةً وحَضارَةً.

أَعتَقِدُ أَنَّ ما من سَبَبٍ يدفعُهُنَّ إِلى ذلكَ سوى أَنَّهُنَّ يحملنَ بِذْرةَ الإِبْداعِ مُنذُ وِلادَتِهنَّ.. فكبِرنَ وكبِرتْ معهنَّ حتّى أَصبحَتْ شجرةً طَيِّبَةَ الثِّمار، وهذا هو الأَمرُ الطَّبيعيُّ في أَيِّ مُجتمَعٍ لا يعتَقدُ رجالُهُ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ دورًا غيرَ ذاكَ الَّذي للرَّجُل.

رُوِيَ عنِ الشّاعِرِ بشّار بنِ بردٍ أَنَّهُ قالَ لبعضِ جُلسائِهِ: ما سمعتُ شعرَ امرأَةٍ إِلّا وأَحسَسْتُ ضَعفًا فيهِ...فقيلَ لهُ وكذلكَ

الخَنساء!؟ قالَ: تلكَ فوقَ الرِّجال..

سُلْطان بَاشَا الأَطْرَش..

مِنْ عادَتي في الوَقْتِ الَّذي أُخَصِّصُهُ لِمُشاهَدَةِ التِّلِفزيون أَنْ أَتَنَقَّلَ ما بَينَ الفَضائِيّاتِ عَلِّي أَجِدُ بَرْنامَجًا يَروقُ لي. ذاتَ لَيلَةٍ شدَّني لِقاءٌ في فضائِيَّةِ دْراما السّورِيَّةِ بَينَ مُقَدِّمِ البرْنامَجِ الفَنّانِ خَفيفِ الظِّلِّ حَسَن تَحسين بك وبَينَ أَحَدِ بُناةِ الإِذاعَةِ السّورِيَّةِ، ومن ثَمَّ التِّلِفزيون السّوري، الإِعْلامي السَّيِّدِ محمّد القَطّان.. لم أَكُنْ قد سَمِعْتُ عنْهُ ولا رَأَيتُهُ من قَبل، ولِلْحَقيقَةِ أَقولُ إِنَّني وجَدْتُ نَفْسي أَمامَ رَجُلٍ وَقورٍ مُثَقَّفٍ مُحِبٍّ لِلُّغةِ العَرَبِيَّةِ إِلى حَدِّ التَّعَصُّبِ.. ومِمّا لَفَتَ انْتِباهي أَنَّهُ عابَ كُتّابَ ومُذيعي هذهِ الأَيّامَ لِأَنَّهُمْ، على الأَغْلَبِ، يَقْرَؤُونَ الكَلامَ خالِيًا مِنَ الشَّكْلِ، مَعَ أَنَّ الشَّكْلَ، عَدا عَن وظيفَتِهِ النَّحَوِيّةِ، يُكْسِبُ لُغَتَنا العَرَبِيَّةَ موسيقى إِضافيَّةً فَوقَ موسيقاها المُمَيِّزَةِ لَها أَصْلًا..

وحينَ تَحَدَّثَ عن ذِكْرياتِهِ ذَكَرَ بِفَخْرٍ واعْتِزازٍ ذاكَ اللِّقاءَ الَّذي أَجْراهُ سَنَةَ 1973 مَعَ سُلْطان باشا الأَطْرَش قائِدِ الثَّورةِ السّورِيَّةِ الكُبْرى والَّتي دامَتْ من سَنَةِ 1925 حَتّى سَنَةِ

1927. سَأَلَهُ في ذلكَ اللِّقاءِ: أَراكَ يا باشا تُطيلُ النَّظَرَ إِلى البَعيدِ، فَماذا تَرى؟ أَجابَ: لا أَرى سِوى الوَطَن! وعادَ عَلَيهِ بِالسُّؤالِ: لِماذا اختاروكَ لِتَكونَ القائِدَ الأَعلى لِلثَّورةِ؟ قالَ: لِأَنَّهُمْ كانوا يَنْظُرونَ إِلى البَعيدِ فَلا يَرَونَني ولكِنَّهُم كانوا يَرَونَ الوَطَنَ!

وأَسْأَلُ: تُرى ونَحْنُ نُعايِشُ هَذِهِ الفَوضَى في مُجْتَمَعِنا العَرَبيِّ في (إِسرائيل) هَلْ ما زِلْنا نَرَى الوَطَن؟!

أَفْراحُنا..

إِنَّ أَفراحَنا تكونُ على الأَغْلَبِ لَطيفَةً خفيفَةً على قُلوبِ الحاضِرينَ، هذا إِذا جاءَتْ تِلقائِيَّةً بَعيدًا عنِ الصَّرفِ الزّائِدِ والمُباهاةِ.. وكما أَعرِفُ فَإِنَّ الفَرَحَ، أَصْلًا هو إِشْهارُ الارتِباطِ بينَ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ بَعْدَ اتِّفاقِهِما على الزَّواجِ.. بِدونِ هذا الإِشْهارِ يَظَلُّ الزَّواجُ مَنْقوصًا لا بَل باطِلًا حَسَبَ الدّينِ والشَّرائِعِ السِّماوِيَّةِ.. رُبَّ سائِلٍ يَسْأَلُ وبِحَقٍّ: وقَبْلَ الدِّياناتِ والشَّرائِعِ كيفَ كانوا يَتَزاوَجونَ؟ أَقولُ ناقِلًا لا واثِقًا: كانَتِ الفَتاةُ تَقولُ لِرَجُلِها: أَزوَجْتُكَ نَفْسي، فيَقولُ: وأَنا قَبِلتُ؛ أَمّا الشُّهودُ فقد تَكونُ أَشْجارًا بِقُرْبِهِما، أَو طُيورًا مارَّةً في السَّماءِ..

وإِذا كُنّا قد أَسْهَبْنا الشَّرْحَ فَهذا لا يَعْني أَنَّنا ندعو إِلى البِدائِيَّةِ في هذا الأَمْرِ المِفْصَلِيِّ الهامِّ في حَياةِ الإِنسانِ؛ ولكِنْ ما دَفَعَنا إِلى نَبْشِ التّاريخِ، هو البَذْخُ الّذي نَراهُ اليَومَ.. كَثيرونَ مِنّا يَأْخُذونَ قُروضًا مَصْرِفِيَّةً باهِظَةً لِكي يُزَوِّجوا أَبْناءَهُم وبَناتِهِم. وقد يَكونُ هذا التَّصَرُّفُ اللّاعَقلانيُّ بِسَبَبِ الضَّغْطِ

الاجتِماعيِّ الَّذي كَثيرًا ما يَفْرِضُ عَلَينا ما لا نُريدُ.

أَمّا الطّامَّةُ الكُبرى فَهي المَدْعُوّونَ أَنفُسُهُم، فَتَراهُم يَتَذَمَّرونَ مِنْ ضيقِ الوَقْتِ، وقِلَّةِ ما في الجَيبِ، وازْدِحامِ القاعاتِ لِكَثْرَةِ المَدعُوّينَ ولا يُحَرِّكونَ ساكِنًا.. وهُناكَ مَنْ يُجاهِرونَ بِأَنَّ هذِهِ عادَةٌ قَديمَةٌ يَجِبُ استِبْدالُها بِما يَتَجانَسُ مَعَ مُتَطَلَّباتِ العَصْرِ بِأَنْ تَكونَ مَقْصورَةً على أَصْحابِ الشَّأْنِ دونَ غَيرِهِم.. تُرى هل يجيءُ يَومٌ نَرى أَفراحَنا مَقْصورَةً على ألأَهلِ والجيرانِ والأَصْدِقاءِ!؟

غُرورُ الشُّعَراءِ..

ماريو بارغاس يوسا (1936 -) رِوائيٌّ عالَميٌّ مِنَ البيرو؛ حائِزٌ على جائِزةِ نوبل سَنةَ 2010.. جاءَ في إِحدى رِواياتِهِ الهامّةِ (الفِرْدَوسُ على النّاصِيةِ الأُخْرَى) وعلى لِسانِ إِحدى الشَّخصِيّاتِ المَركِزِيَّةِ (الغُرورُ هو مَرَضُ الشُّعَراءِ). قد يحملُ هذا الرَّأْيُ بَعضَ التَّجَنّي على شُعَراءٍ بَعيدينَ كُلَّ البُعْدِ عن هذا النَّعتِ المُوجِعِ.

فما هو الغُرورُ؟ إِنَّهُ نَزعَةٌ في الإِنسانِ تُسَبِّبُ الانْخِداعَ؛ فالمَغرورُ إِذًا هو ذاكَ الَّذي يَخدَعُ نَفْسَهُ فَيُعطيها ما ليسَ فيها من قُدُراتٍ، أَو يُضَخِّمُ ما فيها، فَإِذا جلسَ في مَجلِسٍ تَراهُ مُسْتَثْقَلًا في حديثِهِ وحَتّى في لُغَةِ جَسَدِهِ.

أَعتَقِدُ أَنَّ هذِهِ النَّزْعَةَ ليسَتْ مَقْصورَةً على أُمَّةٍ دونَ غيرِها، ولَعَلَّها تبْرُزُ عندَنا لِما كانَ لِلشّاعِرِ مِنّا تِلكَ المكانَةُ العالِيَةُ مُنْذُ كانَ الشّاعِرُ صَوتَ القَبيلةِ وحَامِيها من أَلْسِنَةِ الآخَرينَ.

وأَعتَقِدُ أَيضًا أَنَّ شاعِرَ اليومِ يجبُ أَنْ يكونَ صوتَ الإِنْسانِيَّةِ جمعاءَ، وأَنْ يكونَ حاضِرًا حيثُ الظُّلْمُ يكونُ كما قالَ جيفارا

الغائِبُ الحاضِرُ في قُلوبِنا وعُقولِنا لا بِغُرورِهِ بَلْ بِتَواضُعِهِ وإيمانِهِ بِقُدُراتِهِ الهائِلةِ دونَ تَبجُّحٍ أَو مُباهاةٍ. قد يكونُ جيفارا مِثالًا صَعْبَ المَنالِ، ولكنْ جميلٌ أَن يكتُبَ الشَّاعِرُ قَصائِدَهُ غيرَ مُنْتَظِرٍ مِنَصَّةً يعتَليها، وغيرَ مُستَجيبٍ لِلنَّفْسِ الأَمّارَةِ بالسّوءِ.

كَرامَةٌ قَومِيَّةٌ..

بَعْدَ نَهارٍ قَلَّتْ فيهِ أَسْبابُ فَرَحي وكَثُرَتْ غُصَصِي، جَلَسْتُ على شُرْفَةِ بَيتِي مَعَ ذاتي عَلِّي أُلَمْلِمُ بَعَضَ رومانْسِيَّةٍ وَأَدَتْها المَدَنِيَّةُ دونَ دَمْعَةٍ واحِدَةٍ تَذْرِفُها حُزْنًا عَلَيها.. كانَ القَمَرُ بَدْرًا، نَظَرْتُ إِلَيهِ عَلِّي أَرى ذاكَ النّورَ الشَّعْشَعانيَّ الَّذي طالَما جَمَعَ بَينَ نَظَراتِ مُحِبّينَ فَلَمْ أُبْصِرْ سِوى آثارِ أَقْدامٍ بَشَرِيَّةٍ قَد لَوَّثَتْهُ. نَظَرْتُ إِلى السَّماءِ فَما وجَدْتُ نَجْمَةً تَبْعَثُ لي لأْلاءَها لِأُسَرّي بِهِ عَنْ نَفْسي حينَ لَمْ يُسْعِفْني القَمَر.

لَقَدْ عِشْتُ شَبابًا أَلْبَأَتْهُ رومانسِيَّةُ قَرْيَةٍ جَبَلِيَّةٍ كانَتْ تَصْحو على صَيحاتِ ديكٍ أَو زَقْزَقاتِ دُورِيٍّ، وتنامُ على نَعيبِ بومٍ. هذِهِ القَرْيَةُ نَسَجَتْ لي بِنَولِ بَساطَتِها ثَوبًا لَبِسْتُهُ، فَوَجَدْتُ سَعادَتي في كِسْرَةِ خُبْزٍ مِنْ تَنّورِها، وفي شُرْبَةِ ماءٍ مِنْ رَأْسِ نَبْعٍ أَو مِنْ بَطْنِ بِئْر، وفي عُنْقودِ عِنَبٍ تَدَلّى خُشوعًا لِدالِيَةٍ أَرْضَعَتْهُ حَلاوَةَ روحِها.

لا أَقْصِدُ المُفاضَلَةَ بَينَ حَياتِنا وحَياةِ أَبْنائِنا وأَحْفادِنا اليومَ، ولكِنّي أَرْفَعُ شارَةَ (قِفْ) على شارِعِ المَدَنِيَّةِ الجامِحَةِ لِيَراها كُلُّ مَنْ يُسيءُ فَهْمَها، ويَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ خادِمًا مُطيعًا لَها لا

سَيِّدًا تَكونُ هِيَ في طاعَتِهِ، وقَضاءِ حاجاتِه.

نَحْنُ نُرَحِّبُ بِهذِهِ المَدَنِيَّةِ، ويَكونُ تَرحابُنا بِها أَكْثَرَ إِذا شارَكْنا في بِنائِها أُسْوَةً بِغَيرِنا مِنَ الشُّعوبِ النّاهِضَةِ، والنّاظِرَةِ أَبَدًا نحو العَلاء. ولَيسَ هذا بِمُعْجِزَةٍ لِشَبابٍ بَينَنا عَرَفوا أَنَّ العِلمَ اليومَ عِمادُ الكَرامَةِ القَومِيَّةِ فَنَهَضوا! ما أَجْمَلَها مِنْ نَهْضَةٍ أَبوها العَقْلُ وأُمُّها الإِرادِة!

السَّادِيُّونَ..

السّادِيّونَ لَمْ يَكونوا أَجِنَّةً كَما الأَجِنَّةُ تَكونُ.. بَلْ كانوا جَراثيمَ ماصَّةً، لا تَتْرُكُ الأَرحامَ إِلّا بَعْدَ أَنْ تَجْعَلَها أَغْشِيَةً جافَّةً عاقِرَةً.. ولَمْ يكونوا رُضَّعًا كَما الرُّضَّعُ يكونونَ.. إِنَّهُمْ يَمْتَصّونَ صُدورَ أُمَّهاتِهِمْ.. يَمْتَصّونَ ويَمْتَصّونَ حَتّى تَجِفَّ، فَيَقْضِمونَ حَلَماتِ ثُدَيِّهِنَّ.. فَلا حَليبٌ ولا حَلَماتُ ثُدِيٍّ لِإِخْوَةٍ بَعْدَهُم يَأْتونَ!

السّادِيّونَ لَمْ يَكونوا صِبْيَةً كَما الصِّبْيَةُ يَكونونَ.. فَهُمْ لا يَنْظُرونَ بَلْ يُحَمْلِقونَ، ولا يَأْكُلونَ بَلْ يَبْتَلِعونَ، إذا لَعِبوا نَتَفوا شُعورَ بَعْضِهِمْ، وإِذا تَخاصَموا أَكلوا وَجَناتِ بَعْضِهِمْ.. وإِذا ظَفِروا بِقِطَّةٍ وَديعَةٍ فَقَؤُوا عَينَيها بَعدَ أَنْ يكونوا قَدْ قَطَعوا لَها ذَيلَها! أَمّا إذا ظَفِروا بِجَرْوٍ مِسْكينٍ ضالٍّ، وبَعْدَ أَنْ يُمَثِّلوا بِهِ، يَحْكُمونَ عَليهِ بِالمَوتِ شَنْقًا على أَقرَبِ عَمودِ كَهرَباءِ..

السّادِيّونَ لَمْ يَكونوا فِتْيانًا كما الفِتْيانُ يَكونونَ إِنَّهُمْ عابِسونَ دائِمًا.. ساخِطونَ دائِمًا، ودائِمًا مُسْرِعونَ.. يَسيرونَ وأَذْرُعُهم مُغَطَّاةٌ بِوُشومٍ تُثيرُ في نَفْسِ مَنْ يَراها كُرْهًا.. وفي

أَعْناقِهِمْ تَتَدَلّى مُجَسَّماتٌ من فِضَّةٍ لِرَأْسِ سِعْلاةٍ اَو لِجُمْجُمَةِ قُرصانٍ.. أَعَزُّ ما في جُيوبِهِم لَيسَ النُّقودُ فقط، بل خَناجِرُ وسَكاكينُ لِمُحْتَرِفينَ.. راحاتُهُم بَطيئَةٌ حينَ تَمْتَدُّ لِلمُصافَحَةِ، سَريعَةٌ عِنْدَ استِعْمالِ السِّكّينِ..

مَعْذِرَةً يا سِغموند فرويد.. فَأَنا لَسْتُ طَبيبًا نَفْسِيًّا ولا مُساعِدَ طَبيبٍ.. ولا حَتّى مُساعِدَ مُساعِدِ طَبيبٍ.. بل أَنا إِنْسانٌ على بابِ اللهِ.. لي ما لِغَيري من حَقٍّ بِالعَيشِ بِكَرامَةٍ في هذه الحَياةِ.. لي ما لِغَيْري مِنْ حَقٍّ بِحِمايَتي مِنْ حاكِمٍ سادِيٍّ، يَعْرِفُ أَنَّني أَكْرَهُه.. أَكْرَهُهُ.. أَكْرَهُهُ! ولكِنَّهُ يَنْظُرُ إِليَّ كَما يَنْظُرُ إِلى قَمْلَةٍ في فَرْوَةِ كَلْبٍ.. أَو ذُبابَةٍ على رَوثِ بَقَرةٍ.. أَو رُبمَّا أَرْتَقي في نَظَرِهِ إِلى صَرصارٍ يَدوسُهُ بِحِذائِهِ العسْكَرِيِّ متى شاءَ...!!

سُبْحانَ اللهِ!

بِجانِبِ دارِنا حَديقَةٌ مُتواضِعَةٌ بِمَساحَتِها، شامِخَةٌ بِما تَحتضِنُهُ من أَشجارٍ ومِن أَزهارٍ؛ أَذكُرُ منها شُجَيرَةً من أَشجارِ الزّينَةِ قيلَ لي إنَّ اسمَها (أَجراسُ مَكّةَ)، وقد يكونُ لها أَسماءٌ أُخرى عِندَ أَصحابِ الخِبْرَةِ في عِلمِ الزِّراعَةِ. فَرِحْتُ بهذِهِ الشُّجَيرَةِ لِخُضْرَتِها وكِبَرِ أَزْهارِها البَيضاءِ المُدَلّاةِ كالأجراسِ؛ وفَرِحتُ أَكثرَ برائِحَتِها العِطْرِيَّةِ النَّفاذَةِ الّتي لا تَنْتَشِرُ إلّا مَساءً فَتَزيدُ السّاهِرينَ بَهْجَةً وانْبِساطًا.

وفي يومٍ لاحَظْتُ أَنَّ بَعضَ أَوراقِها قد قُضِمَتْ بِطَريقَةٍ تَدُلُّ على أَنَّ القاضِمَ إِحدى الدِّيدانِ الّتي من سِرِّ بَقائِها أَن تَعيشَ على مِثْلِ هذهِ الأَوراقِ. وبَعدَ البَحثِ وجَدْتُ أَنَّ حَدْسي كانَ صائِبًا، وخَطَرَ لي خاطِرٌ لمْ أُفَكِّرْ بِهِ من قَبل وهو مُراقَبَةُ تلكَ الدّودَةِ يَومِيًّا، إلى أَنْ جاءَ يَومٌ رأَيتُها قد نَسَجَتْ حَولَ نَفسِها غِشاءً خَرَجَتْ منهُ بعدَ حينٍ فَراشَةً بَيضاءَ جَميلَةً فَرَدَتْ جَناحَينِ صَغيرَينِ طَرِيئَينِ وراحَتْ تُمَرِّنُهُما على الطَّيرانِ لَحظَةً ثُمَّ طارَتْ.

قُلتُ: يا سُبحانَ اللهِ! كيفَ استطاعَتْ هذِهِ الدُّودَةُ المُقَزِّزَةُ

أَنْ تُحيلَ قُبْحَها إِلى جَمالٍ والإِنسانُ صاحِبُ العَقْلِ والقَلبِ لا يَستطيعُ، ورُبمَّا لا يُفَكِّرُ، بِأَنْ يَفعلَ ما فَعَلَتْهُ تِلكَ الدُّودَةُ المُقَزِّزَةُ!؟

الجَدَلُ والنِّقاشُ..

قيلَ إنَّ الفرقَ بينَ الجَدَلِ والنِّقاشِ هو أَنَّ الجَدَلَ لا يُؤَدّي إلى نَتيجَةٍ، لا بلْ قد يَنْتَهي بِخُصومَةٍ. وأَمّا النِّقاشُ فَيُؤَدّي إلى ما يُرْضِي المُتَناقِشَيْنِ بِلا تَشَنُّجٍ أو إساءَةٍ.

أُوردُ هذا الشَّرحَ لِأَنَّ سَهَراتِنا قَلَّما تخلو من جَدَلٍ أو نِقاشٍ، ولا عَجَبَ في ذلكَ؛ ولكِنَّ العَجَبَ أَنْ يكونَ الجَدَلُ هو الغالِبُ الّذي بِدَورِهِ يكونُ سَبَبًا في نَزْعِ المَحَبَّةِ مِنَ النُّفوسِ الحانقةِ وزَرْعِ البَغضاءِ ولو إلى حين.

وقَدْ يكونُ موضوعُ الجَدَلِ من توافِهِ الأُمورِ، ولكنَّ الأَنا الّتي بداخِلِ كُلٍّ مِنّا هي الّتي تُضَخِّمُهُ لِيُصْبِحَ مَوقِفًا مِنَ الصَّعبِ التَّنازُلُ عَنْهُ، ويَنْفَضُّ المَجلِسُ من غيرِ» إلى اللِّقاءِ» و» إصبَحوا بِخَير».. وأَتساءَلُ: هل مقولَةُ» الاعترافُ بالذّنْبِ فَضيلَةٌ» أَصبَحَتْ مُنتَهيَةَ الصَّلاحِيَّةِ في راهِنِنا العجيبِ هذا؟ ثُمَّ ما العَيبُ في أَنْ تَقولَ لِصاحِبِ الرَّأْيِ السَّديدِ أَنتَ على حقٍّ، ورَيُكَ في هذا الأَمرِ أَسْلَمُ؟

أَنا وبِكُلِّ تواضُعٍ أَنْتَمي إلى الرَّهْطِ الّذي يَري في التَّراجُعِ عن موقِفٍ خاطِئٍ شَجاعةً، وعن قولِ «نَعَم» حينَ يجبُ قَولُها

شَجاعَةً، وعن قولِ «لا» حينَ يجبُ قولُها مَهما كانَتِ الظُّروفُ شَجاعَةً... وهكذا.. وهكذا. فالحياةُ صُعودٌ وهُبوطٌ، وأَخذٌ وعطاءٌ.. فَلْنَعِشْها بالّتي هي أَحْسَنُ..

هَلْ أَنْسَى..

أَقِفُ الآنَ على عَتَبَةِ السَّادِسةِ والسِّتين.. أَنظرُ خَلْفي فَأَعَجَبُ كيفَ طَويتُ كلَّ هذهِ السِّنينَ ولا يزالُ طِفلٌ يتعَربِدُ في داخِلي.. فيا حَبَّذا طُفولةٌ رأيتُ الحياةَ فيها قِطْعةَ حَلوى أَتلذّذُ بأَكلِها أَو طابةً مُلوّنةً أَلهو بها.

دُخولي المدرسةَ، بكثيرٍ من رهبةٍ وقليلٍ من رغبةٍ، علَّمني أَنَّ للحياةِ وجهًا آخرَ.. فأَصبحَتْ فوضَى طُفولتي نِظامًا، وحِدّةُ طَبْعي دماثةً وتردُّدي إِقدامًا وتلَعثُمي فَصاحَةً وأَصْبَحَتِ المدرسةُ بالنِّسْبَةِ لي دُنيا ثانيةً تَعَلَّمْتُ فيها القراءَةَ والكتابةَ والحسابَ وتعلّمْتُ فيها أَيضًا كيفَ أَكونُ تِلميذًا ناجِحًا وخَلوقًا. فإِذا تفوّقْتُ في تَحْصيلي على غَيري مِنَ التَّلاميذِ فَرِحْتُ من غيرِ زُهُوٍّ أَو خُيَلاءَ. وإِنْ تفوَّقَ عليَّ غَيري قَبِلْتُ الهزيمةَ بِروحٍ عاليةٍ بعيدًا عَنِ الغَيْرَةِ والحَسَدِ مُعَزِّيًا نَفْسي بِأَنَّ الهَزيمَةَ تَجلُبُ النَّصْرَ. أَذكرُ أَنَّني أَحْبَبْتُ أَيّامَ العُطلةِ وأَيّامَ الأَعيادِ تمَامًا كما أَحببْتُ العودةَ إِلى مَقاعدِ الدِّراسَةِ، تِلكَ أَيّامُ اللَّهْوِ وإِراحةِ العقلِ والقلبِ، وهذهِ أَيَّامُ الجِدِّ إِعمالًا للعقلِ والقلبِ. فعرفْتُ بالفِطْرَةِ أَنَّ الحَياةَ السَّليمةَ لَهْوٌ ساعةَ

اللَّهْوِ وجِدٌّ ساعةَ الجِدِّ. اسْتِنْتاجٌ مَنطقيٌّ أَصبحَ مَبدَأً من مَبادِئِ حَياتي.

لن أَنسى مُعلِّمينَ أَحببْتُهم وأَحبُّوني، سأَلتُهم فأَجابوا، وطلبوا فأطعْتُ وأعطوا فأَخذْتُ وشَكَرْتُ. وهلْ أَنسى يومَ أَخَذُوا بِيَدِي صَغيرًا ووَضَعوني على أُولَى دَرَجاتِ الأَلِفِ بَاءِ وقالوا لي: اصْعَدْ فَصَعِدْتُ، ولا أَزالُ أَصْعَدُ.. ذِكْراهُمُ العَطِرَةُ في ذاكِرَتي، كِتابِي صَديقي آخُذُ منهُ مَعْرِفَةً ويَنْتَزِعُ هو مِنِّي جَهْلًا ...

كُتُبٌ صَدَرَتْ لِلشّاعِرِ:

1. وَطَني يَنْزِفُ حُبًّا - شِعْر - الأَسْوار / عَكّا / 1978م
2. وَطَنِي رُدَّنِي إِلى رُباكَ شَهيدًا - قِصَص - الأَسوار/ عَكّا/ 1981م
3. أَموتُ قابِضًا حَجَرًا - شِعْر - الأَسوار/ عَكّا / 1986م
4. تَمْتَماتُ آخِرِ اللَّيلِ - شِعْر – الأَسْوار / عَكّا / 1988م
5. قابِضُونَ عَلى الجَمْرِ - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1991م
6. حَديثُ الحَواسِّ - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1992م
7. عَوَض يَسْتَرِدُّ صِباهُ - شِعْر- إِصْدار خاصّ 1993م
8. أَنْتِ سَبِيَّتُهُمْ وشِعْري نَحيبُ العاجِزِ - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1993م
9. لَيسَ في الحَقْلِ سَوسَنٌ لِلْفَرَحِ - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1995م
10. الحُبُّ أَوَّلًا - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1995م
11. فَرَحٌ يابِسٌ تَحْتَ لِساني - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1996م
12. عَلى سَرسرٍ أَبْيَض - نَصٌّ - الأَسْوار /عَكّا / 1998م

13.أَنا هُوَ الشّاهِدُ – شِعر – الأَسْوار /عَكّا / 2001م

14.تَضيقُ الخَيمَةُ يَتَّسِعُ القَلْبُ – شِعْر – الأَسْوار / عَكّا 2007م

15.الكِتابانِ – شِعْر – الأَسْوار / عَكّا 2007م

16.أَخَذَتْني القَوافي – شِعْر – إِصْدار خاصّ 2013م

17.هَذا العالَمُ لَيسَ بَريئًا – شِعْر – إِصْدار خاصّ 2014م

18.إِنَّها قَرْيَتِي – نَصٌّ تَسْجيلِيّ – مَنْشورات أ. دار الهُدَى عَبد زَحالقة 2016م

19.أَفْراحٌ مُؤَجَّلَةٌ – شِعْر – مَكْتَبَة كُل شَيء / حَيفا 2017م

20.دَبيبُ نَمْلَةٍ – رِوايَةٌ – مَنْشورات أ. دار الهُدَى عَبد زَحالقة 2018م

21.قَبْلَ أَنْ يَرْتَعِشَ القَلَمُ – شِعْر – مَكْتَبَة كل شَيء / حَيفَا 2020م

22.غُصْنُ الفَيجَن – قِصَص – مَكْتَبَة كل شَيء / حَيفا 2021م